

تَفْسِيرُ الْمُرَاغِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقا

الجزء التاسع عشر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء التاسع عشر

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

لا يرجون : أى لا يخافون كما جاء فى قوله : « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا »
واللقاء : مقابلة الشيء ومصادفته ، ولقاءنا : أى لقاء جزائنا ، واستكبروا فى أنفسهم :
أى أوقعوا الاستكبار فى شأن أنفسهم بعدّها كبيرة الشأن ، والعتو : تجاوز الحد
فى الظلم تجاوزا بلغ أقصى الغاية حيث كذبوا الرسول الذى جاء بالوحى ولم يكثرثوا
بالمعجزات التى أتاهم بها ، حجرا محجورا : كلمة تقولها العرب حين لقاء عدو موثور

أو هجوم نازلة هائلة ، يقصدون بها الاستعاذة من وقوع ذلك الخطب الذى يلحقهم والمكروه الذى يلمّ بدارهم : أى نسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويجبره حجرا ، وقدمنا : أى عمدنا وقصدنا ، والهباء كما قال الراغب : دقاق التراب وما انبث في الهواء ولا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس من كوة ونحوها ، والمستقر : المكان الذى يستقر فيه المرء في أكثر الأوقات للجلوس والمحادثة ، والمقيل : المكان الذى يؤوى إليه للاستمتاع بالأرواح والتمتع بحديثهن ، سمي بذلك لأن التمتع به يكون وقت القائلة غالبا .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه أباطيل المشركين السالفة بظعنهم في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بقولهم « لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا » أردف ذلك بذكر سخافات أخرى لهم في هذا الصدد فقالوا : هلا أنزل علينا الملائكة فيخبرونا بصدقه ، أو نرى ربنا فينبئنا بذلك ، ثم بين أن هذا عتو عظيم منهم ، ثم أعقب هذا ببيان أنهم سيرون الملائكة حين الهول يوم الجزاء والحساب حين يقولون لهم لا بشرى لكم اليوم بل فيه منعكم من كل خير ، فإن ما قدمتم من عمل صالح في الدنيا صار هباء منثورا ، ثم أخبر بما يكون لأهل الجنة من خير المستقر وحسن المقيل في ظل ظليل ونعم لامقطوعة ولا ممنوعة ، حين يقولون : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » ولعل في ذكر هذا ما يكون حافزا لهم على مراجعة أنفسهم وتخمين الرأى ليرشّدوا إلى طريق السداد ويقاعوا عما هم فيه من هوى متبع ، وشيطان مطاع .

الإيضاح

(وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا) أى وقال الذين ينكرون البعث والحشر ويظعنون في صدق الرسول فيما أوحى به إليه :

هلا أنزل علينا الملائكة فيختبرونا بأن محمدا صادق فيما يدعى فإننا في شك من أمره وريب مما يخبر به ، وإن لم يكن هذا فلنر ربنا ونعلم أنه هو حقا بأمارات لا يعترها ريب ولا شك ثم يقول لنا : إني أرسلت إليكم محمدا من لدنى بشيرا ونذيرا ، فإن تم لنا ذلك صدقناه وآمنّا به ، وما مقصدهم من هذا وذلك إلا التمدادى فى الإنكار والعناد والجحد والعتوّ ومن ثم قال :

(لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا) أى والله لقد استكبروا فى شأن أنفسهم وتجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان تجاوزا بلغ أقصى الغاية ، تكذيبا برسوله وشموخا بأنوفهم عن أن ينصاعوا إليه ويتبعوه ، ولم يأبهوا بياهر معجزاته ، ولا كثرة آياته ، وإنهم لقد بلغوا غاية القحّة فى الطلب ، وفى الحق إن شأنهم لمعجب ، وإن العقل ليحار فى أمرهم ويدھش لقصور عقولهم وسذاجة آرائهم وضعف أجلامهم « أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَجْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ » والله در القائل :

ومن جهات نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ » .

ثم بين أنهم سيلقون الملائكة حين الهول يوم القيامة لاعلى الوجه الذى طلبوه ولا على الصورة التى اقترحوها بل على وجه آخر لم يمر ببالهم فقال :

(يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا) أى يوم يرى هؤلاء المجرمون الملائكة فلا بشرى لهم بخير ، إذ يقولون لهم : حجرا محجورا أى محرم عليكم البشرى بالغفران والجنة ، أى جعلهما الله حراما عليكم ، إذ هما لا يكونان إلا لمن اعترف بوحداية الله وصدق رسوله .

والخلاصة — لا بشرى يومئذ للكافرين وتقول لهم الملائكة حرام أن نبشركم بما نبشر به المتقين .

ثم بين السبب فى وبالهم وخسرانهم حينئذ فقال :

(وقدّمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) أى فعمدنا إلى محاسن

أعمالهم التي قاموا بها في الدنيا كصلة رحم وإغاثة ملهوف ومن على أسير وبحو ذلك مما لو كانوا عملوها مع الإيمان لنالوا ثوابها - فجعلناه كالماء المشهور لا يجدي ولا يفيد .

وخلاصة ذلك - إنه تعالى جعل مثل هؤلاء الكفار ومثل أعمالهم التي عملوها حال كفرهم - مثل قوم خالفوا سلطانهم واستعصوا عليه ، فقصده إلى ما بين أيديهم فأفسده وجعله شذراً مذكراً ولم يترك له أثراً ولا عيناً .

وبعد أن بين حال الكافرين حينئذ ذكر حال أضدادهم وهم المؤمنون فقال :

(أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً) أى إن منازل أهل الجنة خير من منازل أولئك المشركين الذين يفتخرون بأموالهم وما أوتوا من الترف والنعيم في الدنيا ، وأحسن فيها قراراً حين القائلة من مثلها لهم في الدنيا ، لما يترين به مقيلاً من حسن الصور وجمال التنوّق والأبهة والزخرف وغيرها من المحاسن التي لا يوجد مثلها في الدنيا في بيوت المترفين ، ولما فيه من نعيم لا يشوبه كدر ولا تنغيص بخلاف مقيلاً الدنيا .

وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالنِّعَمِ . وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمَلَكُ
يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعْصُ
الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَا
لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩)

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه في سابق الآيات أن المشركين طلبوا إنزال الملائكة - ردف هذا ببيان أنهم ينزلون حين ينتهى هذا العالم الدنيوى ويختل نظام الأفلاك

والأرض والسموات ويحشر الناس من قبورهم للعرض والحساب، فيعص الكافر على يديه نادما على ما فات ويتمنى أن لو كان قد أطاع الرسول فيما أمر ونهى ولم يكن قد أطاع شياطين الإنس والجن الذين أضلوه السبيل وخذلوه عن الوصول إلى محجة الصواب .

الإيضاح

(ويوم تشقق السماء بالغمام) أى واذا ذكر أيها الرسول لقومك أهوال هذا اليوم حين تكون شمسنا وكواكبنا والشموس الأخرى وسياراتها أشبه بالغمام ، لأنها تصير باراً متفرقة في الجو وترجع سيرتها الأولى أى تتحلل وترجع في الجو كما كانت ويختل نظام هذا العالم المشاهد كما قال تعالى : « وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا . وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا » .

(ونزل الملائكة تزيلاً) بصحائف أعمال العباد لتقدم لدى العرض والحساب وتكون شاهدة عليهم لدى فصل القضاء .

(الملك يومئذ الحق للرحمن) أى الملك الحق فى هذا اليوم ملك الرحمن فله السلطان القاهر والاستيلاء العام ظاهراً وباطناً ، ولا ملك لغيره فى هذا اليوم وهو الذى يقضى بين عباده بالعدل ولا شفيع ولا نصير : « يَوْمَ تَجُزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ » .

ثم ذكر الهول الذى ينال الكافرين حينئذ فقال :

(وكان يوماً على الكافرين عسيراً) أى وكان ذلك اليوم شديد الهول على الكافرين ، لأنه يوم عدل وفصل للقضاء ، وهو على المؤمنين يسير لما ينالهم فيه من الكرامة والبشرى ، وفى الحديث إنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاحها فى الدنيا .

ونحو الآية قوله : « فذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ » .

ثم بين شدة ندم المشركين وعظيم حسرتهم في هذا اليوم فقال :

(.. ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) أى

وفي هذا اليوم يعرض المشرك بربه على يديه ندما وأسفا على ما فرط في جنب الله ، وعلى ما أعرض عنه من الحق الواضح الذى جاء به رسوله ويقول : ليتنى اتخذت مع الرسول طريقا إلى النجاة ولم تتشعب بى طرق الضلالة .

(يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا) أى يا هلكتى احضرى فهذا أوانك ،

ليتنى لم أتخذ فلانا الذى أضلنى وصرفنى عن طريق الهدى خليلا وصديقا .

ومن الأخلاء الشياطين ، ولا فارق بين شياطين الإنس وشياطين الجن ،

ومن هؤلاء أبى بن خلف ، فقد روى أن عُمَيرة بن أبى مُعَيْط كان يكثر بحالسة النبى

صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى ضيافته فأبى أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين

ففعل ، وكان أبى صديقه فعاتبه ، وقال له : صَبَأْتَ ، فقال : لا والله ولكن أبى أن

يأكل من طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له ، فقال لا أرضى منك

إلا أن تأتية فتطأ قفاه وتبزق فى وجهه فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك ،

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف

فأسر يوم بدر فأمر عليا فقتله ، وقتل أبى بن خلف بيده الشريفة يوم أحد ، طعنه

بحربة فوقعت فى رقوته فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم فى جوفه فجعل ينخور كما

ينخور الثور ، فأتى أصحابه حتى احتملوه وهو ينخور فما لبث إلا يوما أو نحوه حتى ذهب

إلى النار فأنزل الله الآية .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر المرء على دين

خليله ، فلينظر أحدكم من يخال » أخرجه أبو داود والترمذى .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تصاحب

إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي » وروى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أن

النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » .

ثم بين علة هذا التنى بقوله :

(لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني) أى لقد أضلني عن الإيمان بالقرآن بعد إذ جاءني من ربي .

ثم أخبر عن طبيعة الشيطان ودأبه فقال :

(وكان الشيطان للإنسان خذولاً) أى وكان من عادة الشيطان أن يخذل الإنسان فيصرفه عن الحق ويدعوه إلى الباطل ثم لا ينقذه مما يحل به من البلاء ولا ينجيّه منه .

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠)
وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا (٣١) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقالاتهم الباطلة وتعتهم الظالم في الرسول من نحو قولهم : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، وقولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ، وقولهم في القرآن : إن هو إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، وقولهم فيه : إن هو إلا أساطير الأولين اكتتبها - أعقب ذلك بشكاية الرسول إلى ربه بأن قومه قد هجروا كتابه ولم يلتفتوا إلى ما فيه من هداية لهم ورعاية لمصالحهم في دينهم ودنياهم ثم سلاه سبحانه عن ذلك بأن هذا ليس دأب قومك فحسب ، بل إن كثيرا من

الأمم قد فعلوا مع رسالهم مثل هذا ، فاقصد بأولئك الأنبياء ولا تجزع ، ثم وعده وعدا كريما بأن يهديه إلى مطلبه وينصره على عدوه ، وكفى به هاديا ونصيرا .

الإيضاح

(وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) أى وقال الرسول مشتكيا إلى ربه : رب إن قومي الذين بعثتني إليهم لأدعهم إلى توحيدك وأمرتنى بإبلاغه إليهم قد هجروا كتابك وتركوا الإيمان بك ولم يأبهوا بوعدك ووعدك ، بل أعرضوا عن اتباعه واستماعه ، وفى ذكره صلى الله عليه وسلم بلفظ (الرسول) تحقيق للحق ورد عليهم إذ كان ما أوردوه قدحا فى رسالته صلى الله عليه وسلم . ثم سلى رسوله عما يلاقيه من الشدائد والأهوال بأن له فى سلفه من الأنبياء قبله أسوة بقوله :

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين) أى كما جعلنا لك أعداء من المشركين يتقولون عليك ما يتقولون من الترهات والأباطيل ويفعلون من السخف ما يفعلون - جعلنا لكل نبي من الأنبياء الذين سلفوا وأوتوا من الشرائع ما فيه هدى للبشر - أعداء لهم من شياطين الإنس والجن وكانوا لهم بالمصاد وقاوموا دعوتهم وصدوا الناس عن اتباعهم حتى تغلب الحق على الباطل وكانت الغلبة للمؤمنين : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » فلا تجزع أيها الرسول فإن هذا دأب الأنبياء قبلك ، واصبر كما صبروا ، قال ابن عباس : كان عدو النبي صلى الله عليه وسلم أباجهل ، وعدو موسى قارون ، وكان قارون ابن عم موسى .

ونحو الآية قوله : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا » .

ثم وعده بالهداية والنصر والتأييد وغلبته لأعدائه فقال : (وكفى بربك هاديا ونصيرا) أى وكفاك ربك هاديا لك إلى مصالح الدين

والدنيا وسيلتك أقصى ما تطلب من الكمال ، وسينصرك على أعدائك وستكون لك الغلبة عليهم آخرا ، فلا يهولك كثرة عددهم وعددهم فإني لا محالة جاعل كلمة الله هي العليا وكلمة أعدائه هي السفلى ، فاصبر لأمرى ، وامض لتبليغ رسالتى حتى يبلغ الكتاب أجله .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)

شرح المفردات

جملة واحدة : أى دفعة واحدة ، لنثبت به فؤادك : أى لنقوى به قلبك ، ورتلناه : أى أتينا ببعضه إثر بعض على تودة ومهل من قولهم ثر مرتل : أى متفلج الأسنان ، بمثل : أى بنوع من الكلام جار مجرى المثل فى تقيقه وتحسينه ورشاقة لفظه وصدق معناه ، تفسيرا : أى إيضاحا ، يحشرون على وجوههم إلى جهنم : أى يسحبون على وجوههم ويخرجون إليها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مطاعنهم فى الكتاب الكريم كقولهم إن هو إلا إفك مبين ، وقولهم هو أساطير الأولين - قفى على ذلك بذكر شبهة أخرى لهم وهى قولهم : لو كان القرآن من عند الله حقا لأنزله جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى والإنجيل جملة على عيسى والزبور على داود ، فرد الله عليهم مقاتلهم وبين لهم فؤاد

إنزاله منجما ، فذكر منها تثبت قواده صلى الله عليه وسلم بتيسير الحفظ وفهم المعنى وضبط الألفاظ إلى نحو أولئك ، ثم وعده بأنهم كلما جاءوا بشبهة دحضها بالجواب الحق والقول الفصل الذى يكشف عن وجه الصواب ، وبعثد ذكر حال المشركين وأنهم حين يحشرون يكونون فى غاية الذل والهوان ويجرون على وجوههم إلى جهنم وهم مصفدون بالسلاسل والأغلال .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) أى وقال اليهود : هلا أنزل القرآن على محمد دفعة واحدة كما أنزلت الكتب السالفة على الأنبياء كذلك ، وهذا زعم باطل ، ودعوى داحضة ، فإن هذه الكتب نزلت متفرقة؛ فقد أنزلت التوراة منجمة فى ثمانى عشرة سنة كما تدل على ذلك نصوص التوراة ، وليس هناك دليل قاطع على خلاف ذلك من كتاب أو سنة كما نزل القرآن ، لكنهم معاندون أو جاهلون لا يدرون كيف نزلت كتب الله على أنبيائه . وهو اعتراف بما لا طائل تحته ، لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله جملة أو متفرقا .

فرد الله عليهم ما قالوا وأشار إلى السبب الذى لأجله نزل منجما فقال : (كذلك أنشئت به قوادك) أى أنزلناه كذلك لنقوى قلبك به بإعادته وحفظه كما قال : « وَقُرْآنًا غُرْقًا لِّتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » .
وخلاصة تلك الفوائد :

(١) إنه عليه السلام لما كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، فلو نزل عليه القرآن جملة واحدة كان من الصعب عليه أن يضبطه ، وجاز عليه السهو والغلط .
(٢) إنه أنزل هكذا ليكون حفظه له أكمل ويكون أبعد عن المساهلة وقلة التحصيل .

(٣) إنه لو أنزل جملة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة عليهم

ولا يخفى ما في ذلك من حرج عليهم بكثرة التكليف مرة واحدة ، ولكن ياتزاله
منجما جاء التشريع رويدا رويدا فكان احتمالهم له أيسر ومرانهم عليه أسهل .

(٤) إنه عليه السلام إذا شاهد جبريل الفيئة بعد الفيئة قوى قلبه على أداء
ما تحمل به وعلى الصبر على أعباء النبوة وعلى احتمال أذى قومه وقدر على الجهاد الذي
استمر عليه طوال حياته الشريفة .

(٥) إنه أنزل هكذا على حسب الأسئلة والوقائع فكان في ذلك زيادة بصر
لهم بدينهم .

(٦) إنه لما نزل هكذا وتحداهم بنجومه وبما ينزل منه وعجزوا عن معارضته
كان عجزهم عن معارضته جملة أجدر وأحق في نظر الرأي الحصيف .

(٧) إن بعض أحكام الشريعة جاء في بدء التنزيل وفق حال القوم الذين
أنزلت عليهم ، وعلى حسب العادات التي كانوا يألفونها ، فلما أضاء الله بصيرتهم
بهدى رسوله تغيرت بعض أحوالهم واستعدت أنفسهم للتشريع يزيدهم طهرا على طهر
ويذهب عنهم رجس الجاهلية الذي كانوا فيه ، فجاء ذلك التشريع الجديد الكامل
المناسب لتلك الحال الجديدة ، ولو نزل القرآن جملة لم يتسن شيء من هذا .
(ورتلناه ترتيلا) أي وأنزلناه عليك هكذا على مهل وقرآنه بلسان جبريل
شيئا فشيئا في ثلاث وعشرين سنة .

وبعد أن أبان فساد قولهم بالدليل الواضح أعقبه بما يقوى قلبه إزاء المشركين
وأنه قد كتب له الفلج عليهم فهم محجوجون في كل آن ، وقولهم مدفوع على كل
وجه فقال :

(ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) أي ولا يأتيتك هؤلاء
للمشركون بصفة غريبة من الصفات التي يقترحونها ويريدون بها القدح في نبوتك
إلا دحضناها بالحق الذي يدفع قولهم ويقطع عروق أسئلتهم السخيفة ، ويكون
أحسن بيانا مما يقولون .

ونحو الآية قوله : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ » .
والخلاصة — إنهم لا يقترحون اقتراحا من فاسد مقترحاتهم إلا أتيناك بما يدفعه
ويوضح بطلانه .
وبعد أن وصفوا رسوله بتلك الأوصاف السالفة تحقيراله — سلاه عن ذلك
وطالب إليه أن يقول لهم .

(الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) أى
إني لا أقول لكم كما تقولون ولا أصفكم بمثل ما تصفوننى به ، بل أقول لكم : إن
الذين يسحبون إلى جهنم ويحرون بالسلاسل والأغلال هم شر مكانا وأضل سبيلا ،
فانظروا بعين الإنصاف ، وفكروا من أولى بهذه الأوصاف منا ومنكم ، لتعلموا أن
مكانكم شر من مكاننا ، وسبيلكم أضل من سبيلنا .

وهذا على نسق قوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .
ويسمون هذا الأسلوب فى المناظرة بإرخاء العنان للخصم ليسهل إخمائه وإلزامه .
روى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر
الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف . صنفًا مشاة وصنفًا ركبانا وصنفًا على وجوههم ،
قيل يا رسول الله ، وكيف يحشون على وجوههم ؟ قال إن الذى أمشاهم على أقدامهم
قادر أن يحشيه على وجوههم ، أما إنهم يتقنون بوجوههم كل حطب وشوك » .
والمراد أن الملائكة عليهم السلام تسحبهم وتجرحهم على وجوههم إلى جهنم ، أو يكون
الحشر على الوجوه عبارة عن الذلة والخزى والهوان ، أو هو من قول العرب مرّ فلان
على وجهه إذا لم يدر أين يذهب .

قصص بعض الأنبياء مع أممهم

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥)
فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦)

وَقَوْمٌ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ سِلَاسًا لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوْءًا فَلَمْ يَكُونُوا بِرَوْفِهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نَشُورًا (٤٠) .

شرح المفردات

قال الزجاج: الوزير من يرجع إليه للاستعانة برأيه ، والتدمير: كسر الشيء على وجه لا يمكن معه إصلاحه ، وأعدنا : هيأنا وأعدنا ، الرس : البر غير المطوية (غير المبنية) والجمع : رساس. قال أبو عبيدة : والمراد بهم كما قال قتادة أهل قرية من اليمامة يقال لها الرس والفالج قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح ، والتبوير: التفطيت والتكسير ، قال الزجاج : كل شيء كسرتة وفتته فقد تبيرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة ، والقرية : هي سدوم أعظم قرى قوم لوط ، لايرجون : أى لايتوقعون ، والنشور : البعث للحساب والجزاء .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم في دلائل وحدانيته ونفى الأنداد ، وفي النبوة وأجاب عن شبهات المنكرين لها ، وفي أحوال يوم القيامة وأهوالها التي يلقاها الكافرون ، وفي النعيم الذى يتفضل به على عباده المتقين ، أردف ذلك بقصص بعض الأنبياء مع أممهم الذين كذبوهم فخل بهم النكال والوبال ، ليكون في ذلك عبرة لقومه المشركين الذين كذبوا رسوله حتى لا يحل بهم من العذاب مثل ما حل بمن قبلهم إذا هم تبادوا في تكذيبهم وأصروا على بغيتهم وطفيتهم .

وقد ذكر من ذلك خمس قصص : قصة موسى مع فرعون وقومه . وقصة نوح وقومه . وقصة هود مع قومه عاد . وقصة صالح وقومه ثمود . وقصة أصحاب الرس .

قصة موسى وهرون عليهما السلام

(ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا) أي ولقد أنزلنا على موسى التوراة كما أنزلنا عليك الفرقان ، وجعلنا معه أخاه هرون معينا وظهيرا له ، ولا تنافي بين هذه الآية وقوله : « وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا » فإنه وإن كان نبيا فالشرعية لموسى عليه السلام وهو تابع له فيها ، كما أن الوزير متبع لسلطانة . ثم ذكر ما أمراه به من تبليغ الرسالة مع بيان أن النصر لهما آخرها على أعدائهما . (فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا) أي قتلنا لهما اذهبا إلى فرعون وقومه الذين كذبوا بدلائل التوحيد المودعة في الأنفس والآفاق ، فإما ذهبا إليهم كذبوها فأهلكناهم أشد إهلاك .

ونحو الآية قوله : « دَعَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتًا هَآءَا » .

وفي ذلك تسلية لرسوله وأنه ليس أول من كذب من الرسل ، فله أسوة بمن سلف منهم .

قصة نوح عليه السلام

(وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية) أي وكذلك فعلنا بقوم نوح حين كذبوا رسولنا نوحا عليه السلام ، وقد اثبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله ويحذروهم نقمته « وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » فأغرقناهم ولم نترك منهم أحدا إلا أصحاب السفينة وجعلناهم عبرة للناس كما قال : « إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُومَ فِي الْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكَرَةً وَتَعْيِيَةً أَذُنٌ وَاعِيَةٌ » أي أبقينا لكم

السفينة لتذكروا نعمة الله عليكم بإنجائكم من الغرق وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق بأمره .

وفي قوله : كذبوا الرسل وهم لم يكذبوا إلا رسولا واحدا وهو نوح - إيماء إلى أن من كذب رسولا واحدا فقد كذب جميع الرسل ، إذ لا فرق بين رسول وآخر ، إذ جميعهم يدعو إلى توحيد الله ونبذ الأصنام والأوثان قاله الزجاج .

ثم ذكر مآل المكذبين فقال :

(وأعدنا للظالمين عذابا أليما) أى وأعدنا لكل من كفر بالله ولم يؤمن برسالة عذابا أليما فى الآخرة .

وفى ذلك رمز إلى أن قرىشا سيحل بهم من العذاب فى الدنيا والآخرة مثل ما حل بأولئك المكذبين إذا لم يرفعوا عن غيهم .

قصص عاد وثمود وأصحاب الرس وغيرهم

(وعادا وثمود وأصحاب الرس) أى ودمرنا عادا قوم هود عليه السلام بالريح الصرصر العاتية ، وثمود قوم صالح بالصيحة ، وأهلكنا أصحاب الرس الذين كانوا باليامة وقتلوا نبيهم . واختار ابن جرير أنهم أصحاب الأخدود الذين ذكروا فى سورة البروج وسيأتى ذكر قصصهم .

(وقرونا بين ذلك كثيرا) أى وأما كثيرة أهلكتهم لما كذبوا رسلنا .

ثم ذكر أنه أئذ أولئك المكذبين وحذرهم قبل أن أوقع بهم فقال :

(وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تكثيرا) أى وكل هؤلاء أؤخذنا لهم حججنا وبيننا لهم أدلتنا وأزحنا عنهم الأعذار ، فتبادوا فى كفرهم وطغيانهم فأهلكناهم أنقطع الإهلاك وأشده .

ثم ذكر مشركى مكة بما يروونه من العبر فى حلهم وترحالهم وما يشاهدونه مما حل بأولئك الأمم المكذبة من المثلثات فقال :

(ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء) أى وتالله لقد مر هؤلاء المكذبون في رحلة الصيف على سدوم أعظم قرى قوم لوط وقد أهلكتها الله بأن أمطر عليها حجارة من سجيل ، لأن قومها كانوا يعملون الخبائث وحذرهم لوط فما أغنت عنهم الآيات والنذر .

ثم ونحوهم على تركهم التذكر حين مشاهدة ما يوجبهم فقال :

(أفلم يكونوا يرونها ؟) أى أفلم يروا ما نزل بتلك القرية من عذاب الله بتكذيب أهلها رسول ربهم فيعتبروا ويتذكروا ويراجعوا التوبة من كفرهم وتكذيبهم لرسوله . ثم أبان أن عدم التذكر لم يكن سببه عدم الرؤية بل منشؤه إنكار البعث والشور فقال :

(بل كانوا لا يرجون نشوراً) أى إنهم ما كذبوا محمدا صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم به من عند الله لأنهم لم يكونوا رأوا ما حل بالقرية التي وصفت ، بل كذبوه من قبل أنهم قوم لا يخافون نشورا بعد الممات ولا يوقنون بعقاب ولا ثواب فيردعهم ذلك مما يأتون عن معاصي الله .

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١)
 إِن كَادَ لِمِضَانَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ
 الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ
 عَلَيْهِ وَكِيلًا (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُمْ إِلَّا
 كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مطاعن المشركين في النبي صلى الله عليه وسلم وأورد شبهاتهم في ذلك - أردف ذلك ببيان أن ذلك ما كفاهم وليتهم اقتصرُوا عليه بل زادوا على

ذلك الاستهزاء به والخط من قدره حتى لقد قال بعضهم لبعض : أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ بل لقد غالوا فى ذلك فسموا دعوته إضلالا ، فرد الله عليهم مقالهم وأبان لهم أنه سيظهر لهم حين مشاهدة العذاب من الضال ومن المضل ؟ ثم عجب رسوله من شناعة حالهم بعد حكاية أقوالهم وأفعالهم القبيحة ، وأرشد إلى أن مثل هؤلاء يبعد أن يزدجروا عما هم فيه من الغى بنصحتك وإرشادك فإن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون وما هم إلا كالأنعام أو أضل منها سبيلا .

روى أن الآية الأولى نزلت فى أبى جهل ومن نعه فإنه كان إذا مر مع صحبه قال مستهزئا : (أهذا الذى بعث الله رسولا) .

الإيضاح

(وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا) أى وإذا رآك هؤلاء المشركون الذين قصصت عليك قصصهم - اتخذوك موضع هزؤ وسخرية وقالوا احتقارا لشأنك هذه المقالة .

ثم ذكر ما زاد قبحه فى زعمهم فقال :
(إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها) أى ويقولون إنه قد كاد يصدنا عن عبادة آلهتنا لولا صبرنا على عبادتها وثباتنا على ديننا .

وفى هذا إيماء إلى وجوه من الفائدة :

(١) إنه صلى الله عليه وسلم قد بلغ من الاحتفال فى الدعوة إلى التوحيد وإظهار المعجزات وإقامة الحجج والبيانات مبلغا شافوا به أن يتركوا دينهم لولا فرط عنادهم وتناهى عتوهم ولجاجهم .

(٢) إنه دال على تناقضهم واضطرابهم فإن فى استغفامهم السابق ما يدل على التحقير له ، وفى آخر كلامهم ما يدل على قوة حجته ورجاحة عقله ، فذكره تحقيق لهم وتجهيل لاستهزائهم بما استغفموا .

وبعد أن حكى مقاتلهم سفه آراءهم من وجود ثلاثة :

(أ) (وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا) أى إنهم حين يشاهدون العذاب الذى استوجبوه بكفرهم وعنادهم سيعلمون من الضال ومن المضل ، وفى هذا رد لقولهم إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ، كما أن فيه وعيدا شديدا على التعامى والإعراض عن الاستدلال والنظر .

(ب) (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ؟) أى انظر فى حال هذا الذى جعل هواه إلهه بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه وأعرض عن استماع الحجة الباهرة والبرهان الجلى الواضح ، وأعجب ولا تأبه به فإنك إن تكون حفيظا على مثل هذا تزجره عما هو عليه من الضلال وترشده إلى الصراط السوى . وخلاصة ذلك — كأنه سبحانه يقول لرسوله : إن هذا الذى لا يرى معبودا له إلا هواه لا يستطيع أن تدعوه إلى الهدى وتمنعه من متابعة الهوى ، إن عليك إلا البلاغ .

ونحو الآية قوله : « لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ » وقوله : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » وقوله : « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » .

وفى هذا الأسلوب تعجيب لرسوله من سوء أحوالهم بعد أن حكى قبيح أقوالهم وأفعالهم ، وتنبيه له إلى سوء عاقبتهم .

قال ابن عباس : كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانا ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول فأنزل الله الآية .

(ح) (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) أى بل أتظن أن أكثرهم يسمعون حق السماع ما تتلو عليهم من الآيات ، أو يعقلون ما تتضمنه من المواعظ الداعية إلى الفضائل ومحاسن الأخلاق ، حتى تجتهد فى دعوتهم ، وتحفل بإرشادهم وتذكيرهم ، وتقطع فى إيمانهم ؛ فاحالهم لإحلال البهائم فى تركهم للتدبر فيما يشاهدون من البينات والحجج ، بل هم أضل منها سبيلا ،

إذ هي قد تنقاد لصاحبها الذي يتعهدا ، وتعرف من يحسن إليها ومن يسيء ،
وتطالب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها ، وتهتدي لمراعيها ومشاربها ، وتأوى إلى معاطنها
ومرابضها ، لكن هؤلاء لا ينقادون إلى خالقهم ورازقهم ولا يعرفون إحسانه إليهم
وإساءة الشيطان لهم ، وهو الذي قد زين لهم اتباع الشهوات - إلى أنهم لا يرجون
ثوابا ولا يخافون عقابا ، إلى أن جهالة الأنعام مقصورة عليها وجهالة هؤلاء تؤدي إلى
وقوع الفتنة والفساد ، وصد الناس عن سنن السداد ، ووقوع الهرج والمرج بين
العباد ، إلى أن البهائم إذ لم تعقل صحة التوحيد والنبوة لم تعتقد بطلان ذلك ، بخلاف
هؤلاء فإنهم اعتقدوا بطلان عنادا ومكابرة وتعصبا وغطا للحق ، إلى أنها لم تعطل
قوة من القوى المودعة فيها فلا تقصير من قبلها عن الكمال ، أما هؤلاء فهم مبطلون
أقوام العقلية مضيعون للأفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وقد قالوا الملائكة روح
وعقل ، والبهائم نفس وهوى ، والبشر مجمع الكل للابتلاء والاختبار ، فإن غلبته
النفس والهوى فضلته الأنعام ، وإن غلبته الروح والعقل فضل الملائكة الكرام .
وتخصيص الأكثر بالذكر ، لأنه قد كان منهم من آمن ، ومنهم من عقل الحق
وكابر استكبارا وخوفا على الرياسة .

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا
الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي
جَعَلَ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ
الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
طَهُورًا (٤٨) لِنُخْرِجَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْ آسَى
كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ إِيذًا كَرُّوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا

كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَیَمُوتُنَا فِی كُلِّ قَرْیَةٍ نَذِیرًا (٥١) فَلَا تُطِيعُ
الْكَافِرِینَ وَجَاهِدْهُمْ بِهٖ جِهَادًا كَبِیرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِی مَرَجَ الْبَحْرَینِ
هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَیْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا
مَّحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِی خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ
رَبُّكَ قَدِیرًا (٥٤) .

شرح المفردات

ألم تر: أى ألم تنظر ، إلى ربك : أى إلى صنعه ، مدّ : بسط ، الظل : ما يحدث
من مقابلة جسم كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس من حين ابتداء طلوعها حتى
غروبها ، ساكنا : أى ثابتا على حاله فى الطول والامتداد بحيث لا يزول ولا تذهب
الشمس ، دليلا : أى علامة ، قبضناه : أى محونا ، يسيرا : أى على مهل قليلا قليلا
على حسب سير الشمس فى فلكها ، والسبات : الموت لما فى النوم من زوال
الإحساس ، والنشور : البعث ، بشرا : (تخفيف بشر بضمين) واحدها بشور
كرسل ورسول : أى مبشرات ، والرحمة : المطر ، بين يديه : أى قدامه ، طهورا :
أى يتطهر به ، والبلدة : الأرض ، واليت : التى لانبات فيها ، والأنعام : الإبل
والبقر والغنم ، وخصها بالذكرا لأنها ذخيرتنا . ومعاش أكثر أهل المدر منها ،
وأناسى : واحدهم إنسان (أصله أناسين أبدلت النون ياء وأدغمت فى الياء) وصرفناه :
أى حولناه فى أوقات مختلفة إلى بلدان متعددة ، ليدذكروا : أى ليعتبروا ، كفورا :
أى كفرانا للنعمة وإنكارا لها ، نذيرا : أى نبيا يذمر أهلها ، والمرج : من قولهم
مرج فلان دابته إذا تركها وشأنها ، فوات : أى مفرط العذوبة ، أجاج : أى شديد
الملوحة ، برزخا : أى حاجزا ، حجرا محجورا : أى تنافرا شديدا فلا يبغي أحدهما
على الآخر ولا يفسد الملح العذب ، نسبا وصهرا : أى ذكورا ينسب إليهم ، وإناثا
يصاهر بهن .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه جهالة المعرضين عن دلائل التوحيد وسخيف مذاهبهم وآرائهم أعاد الكرة مرة أخرى فذكر خمسة أدلة عليه نراها عياناً، وتتوارد علينا ليلاً ونهاراً، وتكون دليلاً على وجود الإله القادر الحكيم .

الإيضاح

(١) (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل) أى انظر أيها الرسول إلى صنع ربك كيف أنشأ الظل لكل مظل من طلوع الشمس حتى غروبها ، فاستخدمه الإنسان للوقاية من لفح الشمس وشديد حرارتها .

(ولو شاء لجعله ساكناً) أى ولو شاء لجعله ثابتاً على حال واحدة لا يتغير ، لكنه جعله متغيراً فى ساعات النهار المختلفة وفى القصول المتعاقبة ، ومن ثم اتخذ مقياساً للزمن منذ القدم ، فاتخذ المصريون (المسلات) وقاسوا بها أوقات النهار على أوضاع مختلفة ، وطرق حكيمة متنوعة ، واتخذ العرب المزاويل لمعرفة أوقات الصلاة فقالوا : يجب الظهور عند الزوال : أى إذا تحول الظل إلى جانب المشرق ، والعصر حين بلوغ ظل كل شىء مثله عند الأئمة عدا أبا حنيفة الذى قال : لا يجب إلا إذا بلغ ظل كل شىء مثليه .

(ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً) أى ثم جعلنا طلوع الشمس دليلاً على ظهور الظل ومشاهدته للحس والعيان ، والأشياء تستبين بأضدادها ، فلو لا الشمس لما عرف الظل ، ولو لا الظلمة ما عرف النور .

(ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً) أى ثم أنزلناه بضوء الشمس يسيراً يسيراً ، ومحوناه على مهل جزءاً فجزءاً على حسب سير الشمس .

(٢) (وهو الذى جعل الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً) أى ومن آثار قدرته وروائع رحمته الفائضة على خلقه ، أن جعل لنفعم الليل كاللباس

يسترکم بظلامه كما يسترکم اللباس ، وجعل النوم كالموت لتعطيله الحواس ووظائفها المختلفة كما قال : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ » وقال : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا » وجعل النهار زمان بعث من ذلك الموت .

وخلاصة ذلك — جعلنا موتكم بالنوم في الليل ، وجعلنا نشوركم : أى انبعاثكم من النوم الذى يشبه الموت بالنهار ، إذ ينشر الخلق المعاش كما ينشرون بعد الموت للحساب . قال لقمان لابنه كما تمام فتوقظ ، كذلك تموت فتنشر .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » الآية .

(٣) (وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) أى والله الذى أرسل الرياح مبشرات بقدوم الأمطار .

(وأنزلنا من السماء ماء طهورا) الطهور اسم لما يتطهر به كالوقود لما توقد به النار والوضوء لما يتوضأ به ، أى وأنزلنا من السحاب ماء تتطهرون به فى غسل ملابسكم وأجسامكم وتلتفعون به فى طبخ مطاعكم وتشربونه عذبا فراتا ، روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى البحر « هو الطهور ماؤه ، الحل ميتته » أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى .

(لنحيى به بلدة ميتا) أى وأنزلناه لنحيى به أرضا طال انتظارها للغيث فهى هادمة لانبات فيها ، وبذلك الماء تزدهر بالشجر والنبات والأزهار ، وذلك أشبه بالحياة للإنسان والحيوان ، ونحو الآية قوله : « فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْبَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » وقوله : « فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا » .

(ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) أى وليشرب منه الحيوان والإنسان ،

وأخّر ذكر الإنسان عن النبات والحيوان لحاجته إليهما في حياته ، ولأنهم إذا ظفروا بماء يسقى أرضهم ومواشيهم لم يعدموا ما يكون منه سقيهم .

(ولقد صرفناه بينهم) أى ولقد صرفنا المطر بين الناس على أوضاع شتى فلا تمر ساعة في ليل ولا نهار إلا كان فيه دليل على آثار قدرتنا ، فنزله على قوم ونحجبه عن آخرين ، فنحن صرفناه بينهم كما صرفنا الليل والنهار ، فالشمس تجري من عند قوم وتذهب إلى آخرين : « صُمِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ » .

إلى أن الماء يكون جامدا يشبه الحجر ، وسائلا يشبه الزيت وسائر المائعات ، وجسما بخاريا يشبه الهواء ، وهو أيضا غاد ورائح في الجو وفي الأنهار وفي العدران وفي أجسام النبات والحيوان والإنسان .

(ليذكروا فإني أكثر الناس إلا كفورا) أى صرفناه بينهم ليعتبروا ويعرفوا حق النعمة فيشكروا ، ولكن أكثر الناس أبوا إلا جحودا للنعمة وكفرا بإحسانها . ثم بين منتهى على رسوله وأنه كلفه الأحوال الثقيل من أعباء النبوة ليزداد شرفا ويعظم قدرا فقال :

(ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا) أى ولو أردنا أن نرسل رسولا إلى أهل كل قرية لفعلنا وخفت عنك أعباء النبوة ، ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة ، لتستوجب بصبرك ما أعدناه لك من الكرامة والمنزلة الرفيعة ، فقابل ذلك بشكر النعمة ، وبالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق كما قال : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » وجاء في الصحيحين « بعثت إلى الأحمر والأسود » أى إلى العجم والعرب .

والخلاصة — إنا عظمناك بهذا الأمر وجعلناك مستقلا بأعبائه ، لتحوز ما ادخر لك من جنس جزائه ، فعليك بالمجاهدة والمصابرة ولا عليك من تلقيهم الدعوة بالأباء والمشاكسة . (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) أى فلا تطع الكافرين فيما

يدعونك إليه من موافقتهم على مذاهبهم وآرائهم ، وجاهدوا بالشدة والعنف
لابللانية والمداواة لتكسب ودهم ومحبتهم ، بل عظم بما جاء به القرآن من المواعظ
والزواجر ، وذكرهم بأحوال الأمم المكذبة لرساها ، وذلك منتهى الجهاد الذى
لا يقادر قدره .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ
عَلَيْهِمْ » .

والخلاصة — إنك مبعوث إلى الناس كافة لتنذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ،
فاجتهد فى دعوتك ولا تتوان فيها ولا تحفل بوعيدهم ، فإن الله ناصرك عليهم ومظهر
دينك على الدين كله ولو كره المشركون .

(٤) (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل
بينهما برزخا وحجرا محجورا) أى ومن آثار نعمته على خلقه أن خلق البحرين
متجاورين متلاصقين وجعلهما لا يمتزجان ، ومنع المالح من تغيير عذوبة العذب
وإفساده إياه ، وحجزه عنه بقدرته ، فكان بينهما حاجزا يمنع أحدهما من إفساد
الآخر ، وكان بينهما ساترا يحمله لا يبغي عليه .

والخلاصة — إنه تعالى جعل البحرين مختلطتين فى رأى العين منفصلتين
فى التحقيق بقدرته تعالى بحيث لا يختلط المالح بالعذب ولا العذب بالمالح ولا يتغير
طعم أحدهما بالآخر ولا يفسده .

ونحو الآية قوله فى سورة الرحمن : « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ، بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ
لَا يَبْغِيَانِ ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ » .

(٥) (وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا) أى
وهو الذى جعل الماء جزءا من مادة الإنسان ليقبل الأشكال المختلفة والأوضاع المنوعة ،
وقسمه قسمين ذوى نسب ينسب إليهم وهم الذكور وذوات صهر يصاهر بهن وهن

الإناث كما قال : « سَجَعَلْ مِنْهُ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » وكان الله قديرا إذ خلق من مادة واحدة بشرا عجيب الصنع بديع الخلقة ذا أعضاء مختلفة وطباع متباينة كبير العقل عظيم التفكير سَخَّرَ ماعلى ظاهر الأرض وباطنها لنفعه وقائده « وَسَخَّرَ لَكُمْ مِافِ الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ » .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَرًّا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْذَرُ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)

شرح المفردات

الظهير والمظاهر : المعاون فهو يعاون الشيطان على ربه : أى على رسوله بالعداوة ، وسبح بحمده : أى ونزهه وصفه بصفات الكمال ، ويقال كفى بالعلم جحالا : أى حسبك فلا تحتاج معه إلى غيره ، والخير بالشئ : العليم بظاهره وباطنه وبكل ما يتصل به ، والبروج : منازل السيارات الاثنى عشر المعروفة التى جمعها بعضهم فى قوله :

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان

ورمى عقرب بقوس الجدى نزع الدلو بركة الحيتان

فهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبل والميزان والعقرب والقوس
والجدى والدلو والحوت ، وهى منازل الكواكب السيارة السبعة وهى : المريخ
وله الحمل والعقرب ، والزهرة : ولها الثور والميزان ، وعطارد : وله الجوزاء والسنبل ،
والقمر : وله السرطان ، والشمس : ولها الأسد ، والمشتري : وله القوس والحوت ،
وزحل : وله الجدى والدلو ، وهى فى الأصل القصور العالية . فأطلقت عليها على
طريق التشبيه ، والسراج : الشمس ، خلفه : أى يخلف أحدهما الآخر ويقوم مقامه
فما ينبغي أن يعمل فيه .

المعنى الجملى

بعد أن بسط سبحانه أدلة التوحيد وأرشد إلى ما فى الكون من باهر الآيات
وعظيم المشاهدات التى تدل على بديع قدرته وجليل حكمته - أعاد الكرة مرة أخرى ،
وبين شناعة أقوالهم وتبجح أفعالهم ، إذ هم مع كل ما يشاهدون لا يرفعون عن غيهم
بل هم عن ذكر ربهم معرضون ، فلا يعظمون إلا الأحرار والأوثان وما لا نفع فيه
إن عبد ، وما لا ضرر فيه إن ترك ، إلى أنهم يظاهرون أولياء الشيطان ويناثون
أولياء الرحمن ، وإن تعجب لشيء فاعجب لأمرهم فقد بلغ من جهلهم أنهم يضارون
من جاء لنفهم وهو الرسول الذى يبشّرهم بالخير العيم إذا هم أطاعوا ربهم وينذرم
بالويل والنبور إذا هم عصوه ، ثم هو على ذلك لا يبتغى أجرا .

ثم أمر رسوله بالألّا يرهب وعيدهم ولا يخشى بأسهم ، بل يتوكل على ربه
ويستبجح بحمده ويتزهد عما لا يليق به من صفات النقص كالشريك والولد ، وهو
الخبير بأفعال عباده فيجازيهم بما يستحقون .

الإيضاح

(ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم) أى ويعبد هؤلاء المشركون من دون الله آلهة لا تنفعهم إذا هم عبدوها ، ولا تضرهم إن تركوا عبادتها ، فهم عبدوها لحرد الشهى والهوى ، وتركوا عبادة من أنعم عليهم بهذه النعم التى لا كفاء لأذناها ، ومن ذلك ما ذكره قبل بقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » إلى آخر الآيات .

ثم ذكر لهم جُرْماً آخر فقال :

(وكان الكافر على ربه ظهيراً) أى وكانوا مظاهرين الشيطان على معصية الرحمن ، وذلك دأبهم ودينهم ، فهم يعاونون المشركين ويكونون أولياء لهم على رسوله وعلى المؤمنين بمساعدتهم على الفجور وارتكاب الآثام ، وخذلان المؤمنين إذا أرادوا منعها والتنفيذ منها كما قال : « وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَىِّ » .

وقد يكون المعنى — وكان الكافر على ربه هيناً ذليلاً لا قدر له ولا وزن له عنده من قول العرب : ظهرت به ، أى جعلته خلف ظهره ولم تلتفت إليه ، ومنه قوله تعالى : « وَاتَّخَذَ نَمُوهُ وَرَاءَ كُمُ ظَهْرِيًّا » أى هيناً ، وقول الفرزدق :

تميم بن قيس لا تكون حاجتى بظهر فلا يعيى على جوابها

قال ابن عباس نزلت الآية فى أبى الحكم بن هشام الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم أباً جهل بن هشام .

ثم بين عظيم حقهم ونفورهم من جاء لطلب الخير لهم ودفع الأذى عنهم فقال : (وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) أى كيف تطلبون العون على الله ورسوله والله قد أرسل رسوله لنفعكم ، إذ قد بعثه ليبشركم على فعل الطاعات وينذركم على فعل المعاصى ، فتستحقوا الثواب وتبتعدوا عن العقاب .

وخلاصة ذلك — لاجهل أعظم من جهل من استفرغ جهده في إيذاء من يرجو نفعه في دينه ودنياه .

وفي هذا تسلية لرسوله حتى لا يحزن على عدم إيمانهم .

ثم أمر رسوله أن يبين لهم أنه مع كونه يريد نفعهم لا يبغي لنفسه نفعاً فقال :
(قل ما أسألكم عليه من أجر) أى قل لمن أرسلت إليهم : لا أسألكم على ما جئت به من عند ربي أجراً ، فتقولوا إنما يدعوننا ليأخذ أموالنا ، ومن ثم لا تتبعه حتى لا يكون له في أموالنا مطمع .

(إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً) أى لكن من شاء منكم أن يتقرب إلى الله بالإلفاق في الجهاد وغيره ويتخذ ذلك سبيلاً إلى رحمته ونيل ثوابه فليفعل .

وخلاصة ذلك — لا أسألكم عليه أجراً لنفسى ، وأسألكم أن تطلبوا الأجر لأنفسكم باتخاذ السبيل إلى ربكم لنيل مثوبته ومغفرته .

وبعد أن بين له أن الكافرين متظاهرون على إيذائه — أمره بالتوكل عليه في دفع المضار وجلب المنافع فقال :

(وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده) أى وتوكل على ربك الدائم الباقي رب كل شيء ومليكه ، واجعله ملجأك وذخرك وفوض إليه أمرك واستسلم له واصبر على ما نابك فيه ، فإنه كافيك وناصرك ومبلغك ما تريد ، ونزهه عما يقوله هؤلاء المشركون من الصاحبة والولد فهو الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد ، كما تنزهه عن الأنثاد والشركاء من الأصنام والأوثان فهو لا كف له ولا ند : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » .

وقد علمت قبل أن التوكل اعتماد العبد على الله في كل الأمور ، والأسباب وسائط أمرنا باتباعها من غير اعتماد عليها .

ونحو الآية قوله : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .

وفى قوله : (الحى) إيماء إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل على من لم يتصف بالحياة من صنم أو وثن ولا على من لا بقاء له ممن يموت ، لأنه إذا مات ضاع من توكل عليه . وحكى عن بعض السلف أنه قرأ هذه الآية فقال : لا ينبغي لذى لب أن يثق بعدها بمخلوق .

ثم أنذرهم وحذرهم بأن ربهم مُحْصٍ أعمالهم عليهم ومجازيهم عليها يوم القيامة فقال :

(وكفى به بذنوب عباده خبيرا) أى وحسبك بالذى لا يموت خبيرا بذنوب خلقه ما ظهر منها وما بطن ، فهو لا يخفى عليه شيء منها وهو محصيا عليهم ومجازيهم عليها إن خيرا نغير وإن شرا فشر ، فلا عليك إن آمنوا أو كفروا . وفى هذا سلوة لرسوله ووعد لأولئك الكافرين على سوء أفعالهم وإعراضهم عن اتباع رسوله ومناصبته العداء وكأنه قيل إذا أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه فى مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة .

ثم وصف نفسه بذكر أفعاله التى تجعله حقيقا أن يتوكل عليه فقال :
(الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) تقدم إيضاح هذا فى سورة يونس وهود وطه ، ولكن يلاحظ هنا أنه تعالى وصف نفسه بالأبدية والعلم الشامل ثم بخلق السموات والأرض ليقرر وجوب التوكل عليه ويؤكد ، فإن من أحدث هذه الأجرام العظيمة على ذلك النمط البديع وجعلها مرفوعة بغير عمد فى تلك الأيام وقد كان قديرا على إبداعها دفعة واحدة بقدرته التى لاتقف على كنهها العقول - جدير بأن يتوكل عليه ويفوض الأمر إليه .
(الرحمن) أى عظيم الرحمة بكم والحدب عليكم ، فلا تعبدوا إلا هو ولا تتوكلوا إلا عليه .

وخلاصة ذلك — توكلوا على من لا يموت وهورب كل شيء وخالقه وخالق السموات السبع على ارتفاعها واتساعها وما فيها من عوالم لا يعلم كنهها إلا هو ، وخالق

الأرضين السبع على ذلك الوضع البديع في ستة أيام ثم استوى على العرش يذبر الأمر ويقضى بالحق .

(فاسأل به خبيراً) أى فاسأل عن خلق ما ذكر خبيراً به يخبرك بحقيقته وهو الله سبحانه ، لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو ، فالأيام التى تم فيها الخلق إنما هى أطوار ستة سار عليها طورا بعد طور وحالا بعد أخرى كما يرشد إلى ذلك قوله : « وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ » والاستواء على العرش لا يراد به الجلوس عليه بل تمام التصرف فيه .

فمن كان محدود الفكر فليقف عند ظاهر اللفظ ويترك البحث ، ومن كان حصيف الرأى طليق الفكر فليجد في البحث والدرس وسؤال أهل الذكر من العلماء ليعلم المراد من ذلك على قدر ما تصل إليه طاقة البشر .

وبعد أن ذكر سبحانه إحسانه إليهم وإنعامه عليهم ذكر ما أبدوه من الكفر في موضع الشكر فقال :

(وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ؟) أى وإذا قيل لهؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم : اجعلوا خضوعكم وتعظيمكم للرحمن خالصا دون الآلهة والأوثان ، قالوا على طريق التجاهل : وما الرحمن ؟ أى نحن لا نعرف الرحمن فتسجد له .

ونحو هذا قول فرعون : « وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ » حين قال له موسى عليه السلام : « إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وهو قد كان عليما به كما يؤذن بذلك قول موسى له : « لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاطِرٍ » .

ثم عجبوا أن يأمرهم بذلك وأنكروه عليه بقولهم :

(أنسجد لهما تأمرنا ؟) أى أنسجد للذى تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه .

ثم بين أنه كلما أمرهم بعبادته ازدادوا عنادا واستكبارا فقال :

(وزادهم نفورا) أى وزادهم هذا الأمر بالسجود نفورا وبعدا مما دغوا إليه ، وقد كان من حقه أن يكون باعثا لهم على القبول ثم الفعل . وكان سفيان الثوري يقول فى هذه الآية : إلهى زدنى لك خضوعا ، ما زاد عداك نفورا .

روى الضحاك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه سجدوا ، فلما رأهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين . وبعد أن حكى عنهم مزيد النفرة من السجود له ، ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود لمن له تلك الخصائص فقال :

(تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقرأ منيرا) أى تقدس ربنا الذى جعل فى السماء نجومها كبارا عدها المتقدمون نحو ألف وعدها علماء العصر الحاضر بعد كشف آلات الرصد الحديثة (التلسكوبات) أكثر من مائتى ألف ألف ، ولا يزال البحث يكشف كل حين منها جديدا ، وجعل فيها شمسا متوقدة وقرأ مضيئا .

ثم ذكر آية أخرى من آيات قدرته ودليلا على وحدانيته فقال :

(وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) أى وهو الذى جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر ، فيكون فى ذلك عظة لمن أراد أن يتعظ باختلافهما ويتذكر آلاء الله فيهما ويتفكر فى صنعه ، أو أراد أن يشكر نعمة ربه ليبنى ثمار كل منهما ، إذ لو جعل أحدهما دائما لفاتت فوائد الآخر ، ولحصلت السامة والملل ، وفتر العزم الذى يشيره دخول وقت الآخر ؛ إلى نحو أولئك من الحكم التى أحكمها العلى الكبير .

وفى الحديث الصحيح : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » .

وعن الحسن : من فاته عمل من التذكر والشكر بالنهار كان له فى الليل مستعتب ،

ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعقب . وروى أن عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى فقبل له : صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه ! فقال : إنه بقي على من وردني شيء فأخبيت أن أتمه أو قال أقضيه وتلا هذه الآية : « وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ الْحِجَابَ » .

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا
سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ
بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ
تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ
اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ
مُتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢)
وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْهَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ
يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ
إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً
وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ
بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) .

شرح المفردات

المون : الرفق واللين والمراد أنهم يمشون في سكينة ووقار ولا يضر بون بأقدامهم
أشرا وبطرا ، الجاهلون : أى السفهاء ، سلاما : أى سلام توديع ومشاركة لسلام تحية
كقول إبراهيم لأبيه : « سَلَامٌ عَلَيْكَ » ويبيتون : أى يدركهم الليل ناموا أو لم
يناموا كما يقال بات فلان قلعا ، غراما : أى هلاكا لازما ، قال الأعشى :

إن يعاقب يكن غراما وإن يعطى جزىلا فإنه لايبالى

والإسراف : مجاوزة الحد في النفقة بالنظر لنظرائه في المال ، والتقتير : التضييق
والشح ، قواما : أى وسطا وعدلا ، لا يدعون : أى لا يشركون ، والآثام : الإثم
والمراد جزاؤه ، مهانا : أى ذليلا مستحقرا ، لا يشهدون الزور : أى لا يقيمون الشهادة
الكاذبة والمراد أنهم لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ، واللغو ما ينبغي أن يلغى
ويطرح مما لاخير فيه ، كراما : أى مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه ، والخزور :
السقوط على غير نظام وترتيب ، وقرّة العين : يراد بها الفرح والسرور ، والإمام :
يستعمل للمفرد والجمع والمراد الثانى أى أئمة يقتدى بهم في إقامة مراسم الدين ،
والغرفة : كل بناء عال مرتفع ويراد بها الدرجات الرفيعة ، ما يعبأ بكم : أى لا يعتد بكم ،
دعأؤكم : أى عبادتكم ، لازما : أى لازما يحقق بكم حتى يكبكم في النار .

المعنى الجملى

بعد أن وصف الكافرين بالإعراض عن عبادته والنفور من طاعته والسجود له
عز اسمه - ذكر هنا أوصاف خلص عباده المؤمنين ، وبين ما لهم من فاضل الصفات
وكامل الأخلاق التى لأجلها استحقوا جزيل الثواب من ربهم وأكرم لأجلها مشواهم ؛
وقد عدّ من ذلك تسع صفات مما تشرب إليها أعناق العاملين ، وتطلع إليها نفوس
الصالحين ، الذين يبتغون المثوبة ونيل النعيم كفاء ما اتصفوا من كريم الخلال ،
وأتوا به من جليل الأعمال .

الإيضاح

وصف الله سبحانه عباده الخالصين الذين استوجبوا المثوبة منه وجازاهم على ذلك الجزاء بصفات تسع :

(١) (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) أى وعباد الله الذين حق لهم الجزاء والمثوبة من ربهم هم الذين يمشون فى سكينه ووقار ، لا يضربون بأقدامهم كبرا ، ولا يخفقون بفعالهم أشرا وبطرا .

روى أن عمر رضى الله عنه رأى غلاما يتبختر فى مشيته فقال : إن البختره مشية تكره إلا فى سبيل الله ، وقد مدح الله أقواما فقال : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) فاقصد فى مشيتك .

وقال ابن عباس : هم المؤمنون الذين يمشون علماء حلماء ذوى وقار وعفة .
وفى الحديث إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس فى الإيضاع » (السير السريه) وفى صفته صلى الله عليه وسلم : إنه كان إذا زال زال ثقلها ، ويخطو تكفؤا ، ويمشى هونا ، ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صلب (التقلع : رفع الرجل بقوة ، والتكفؤ : الميل إلى سنن القصد ، والهون : الرفق والوقار ، والذريع : الواسع الخطا) أى إنه كان يرفع رجله بسرعة فى مشيه ويمد خطوه خلاف مشية المحتال وكل ذلك برفق وثبت دون عجلة ومن ثم قيل كأنما ينحط من صلب قاله القاضى عياض فى الشفاء .

وخلاصة هذا — إنهم لا يتكبرون ولا يتخبرون ولا يريدون علواً فى الأرض ولا فسادا .

(٢) (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) أى وإذا سفه عليهم السفهاء بالقول السئ لم يقابلوهم بمثله ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزيد شدة الجاهل عليه إلا حلما .

وعن الحسن البصري : هم حلاء لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حملوا ولم يسفهاوا .
هذا نهارهم فكيف لي بهم ؟ خير ليل ، صفوا أقدامهم ، وأجروا دموعهم ، يطلبون
إلى الله جل ثناؤه فكأنك رقابهم .

قال ابن العربي : لم يؤمر المسلمون يومئذ أن يسلّموا على المشركين . ولا نهوا
عن ذلك ، بل أمروا بالصفح والهجر الجليل ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يقف
على أندية المشركين ويحييهم ويدانهم ولا يداهنهم .
ولما ذكر تعالى ما بينهم وبين الخلق ذكر ما بينهم وبينه فقال :

(٣) (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) أى يبيتون ساجدين قائمين لربهم
أى يحمون الليل كله أو بعضه بالصلاة ، وخص العبادة بالبيتوتة ، لأن العبادة بالليل
أحصى وأبعد عن الرياء ، وقال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء
تقدّبات لله ساجدا قائما . وقال الكلبى : من أقام ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد
العشاء فقد بات ساجدا قائما .

ونحو الآية قوله : « تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ » وقوله : « كَانُوا قَلِيلًا
مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » وقوله : « أَمْ مِّنْ هُوَ قَانِتٌ
آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ » .

(٤) (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم) أى والذين يدعون ربهم
أن يصرف عنهم عذاب جهنم وشديد آلامها .

وفى هذا مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم للخلق واجتهادهم فى عبادة
الخالق وحده لا شريك له ، يخافون عذابه ويتהלون إليه فى صرفه عنهم غير محتفلين
بأعالمهم كما قال فى شأنهم : « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى
رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ » .

ثم بين أن سبب سؤالهم ذلك لوجهين .

(١) (إن عذابها كان غراما) أى إن عذابها كان هلاكا دائما وخسرا دائما ملازما .

(ب) (إنها ساءت مستقرا ومقاما) أى إنها بثس المنزل مستقرا وبثس المقييل مقاماً : أى إنهم يقولون ذلك عن علم ، وإذا فهم أعرف بعظم قدر ما يطلبون ، فيكون ذلك أقرب إلى النجح .

قال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم ، وقال محمد ابن كعب : طالبهم الله تعالى بثمن النعيم فى الدنيا فلم يأتوا به فأخذ ثمنه بإدخالهم النار .

(هـ) (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) أى والذين هم ليسوا بالمبذرين فى إنفاقهم فلا ينفقون فوق الحاجة ، ولا يبخلوا على أنفسهم وأهلهم فيقصرون فيما يجب نحوهم ، بل ينفقون عدلا وسطا ، وخير الأمور أوسطها ، وقد قيل :

ولا تَعْلُ فى شىء من الأمر واقتصد كلا طرقى قصد الأمور ذم
وقيل :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتته ولم ينهها تاقّت إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذى دعت إليه من حلاوة عاجل
قال يزيد بن أبى حبيب : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتعنم واللذة ، ولا يلبسون ثيابا للجمال ، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع ويقويهم على عبادة ربهم ، ومن اللباس ما يستر عوراتهم ويكفهم من الحر والبرد ، وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز حين رآه ابنته فاطمة ، ما نفقتك ؟ قال عمر : الحسنة بين سيئتين ؟ ثم تلا هذه الآية ، وقال لابنه عاصم : يا بنى كل فى نصف بطنك ، ولا تطرح ثوبا حتى تستخلفه ، ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله فى بطونهم وعلى ظهورهم .

(٦) (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر) أى والذين لا يعبدون مع الله إلها آخر فيشركون فى عبادتهم إياه بل يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة .

(ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق) أى ولا يقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها ، كالكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد الإحصان ، وقتل النفس بغير حق .

(ولا يزنون) فيأتون ما حرم الله عليهم إتيانه من الفروج .

روى البخارى ومسلم والترمذى عن ابن مسعود قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت ثم أى ؟ قال أن تزاني حليلة جارك » فأنزل الله تصديق ذلك : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر) الآية .

وقد نفى عنهم هذه القبائح مع أنه وصفهم بالصفات السالفة من حسن معاملتهم للناس ومزيد خوفهم من الله وإحياء الليل يقتضى نفياً عنهم ، تعريضاً بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم ، وتنبيهاً إلى الفرق بين سيرة المؤمنين وسيرة المشركين ، فكانه قيل : وعباد الرحمن الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر وأنتم تدعون ، ولا يقتلون وأنتم تقتلون الموءودة ، ولا يزنون وأنتم تزنون .

روى مسلم عن ابن عباس : أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثرُوا ، وزنوا فأكثرُوا ، فأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم فقالوا ، إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزلت : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً) ونزل : « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا » الآية . وقد قال ابن عباس وسعيد بن جبير إن هذه نزلت في وحشى قاتل حمزة .

ثم توعده سبحانه من يفعل مثل هذه الأفعال بشديد العقاب فقال :

(ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً) أى ومن يفعل خصلة من خصال الفجور السالفة ، يلقى في الآخرة جزاء إثمه وذنبه

الذى ارتكبه ، بل سيضاعف له ربه العذاب يوم القيامة ويجعله خالدا أبدا في النار مع المهانة والاحتقار ، فيجتمع له العذاب الجسدى والعذاب الروحى .

وبعد أن أتم تهديد الفجار على هذه الأوزار أتبعه بترغيب الأبرار في التوبة والرجوع إلى حظيرة المتقين فيفوزون بحبات النعم فقال :

(إلامن تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيمًا) أى لسن من رجع عن هذه الآثام مع إيمانه وعمله الصالحات فأولئك يمحو الله سوابق معاصيه بالتوبة ويثبت له لواحق طاعته .
قال الحسن : قال قوم هذا التبديل فى الآخرة وليس كذلك .

قال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة .

وروى أبو ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن السيئات تبدل بحسنات » ، وروى معاذ أنه صلى الله عليه وسلم قال : « أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس يخلف حسن » .

والخلاصة — إنه يعفو عن عقابه ويتفضل بثوابه ، والله واسع المغفرة لعباده ، فيثيب من أناب إليه بحزيل الثواب ، ويبعد عنه شديد العقاب .

(ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا) أى ومن تاب عن المعاصى أتى فعلها وندم على ما فرط منه وزكى نفسه بصالح الأعمال ، فإنه يتوب إلى الله توبة نصوحا مقبولة لديه ماحية للعقاب محصلة لجزيل الثواب ، إلى أنه يغير قلبه بنور من عنده يهديه إلى سواء السبيل ويوقه للخير ، ويبعده عن الضير .

وفى هذا تعميم لقبول التوبة من جميع المعاصى بعد أن ذكر قبولها من أمهاتها .
(٧) (والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما) أى والذين لا يؤدون الشهادات الكاذبة ، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ، ويكرمون أنفسهم عن سماع اللغو وما لا خير فيه كاللغو فى القرآن وشتم الرسول والخوض فيما

لا ينبغي ، وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخم وجهه ،
(يطليه بمادة سوداء) ويحلق رأسه ويطوف به في السوق .

ونحو الآية قوله : « وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَالُكُمْ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ » .

(٨) (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) أى والذين
إذا ذكروا بها أكتبوا عليها سامعين بأذان واعية ، مبصرين بعيون راعية .

وفى هذا تعريض بما عليه الكفار والمنافقون الذين إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا
به ولم يتحولوا عما كانوا عليه ، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم وجهلهم وضلالهم
فكأنهم صم لا يسمعون ، وعمى لا يبصرون .

(٩) (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا
المتقين إماما) أى والذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من يطيعه ويعبده
وحده لا شريك له - وصادق الإيمان إذا رأى أهله قد شاركوه فى الطاعة قرت بهم
عينه وسر قلبه وتوقع نفعهم له فى الدنيا حيا وميتا ، وكانوا من اللاحقين به فى الآخرة
ويسألون أيضا أن يجعلهم أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين بما يفيض عليهم من
واسع العلم ، وبما يوفقهم إليه من صالح العمل .

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، وعلم ينتفع به من
بعده ، وصدقة جارية » .

والخلاصة — إنهم طلبوا من ربهم أمرين - أن يكون لهم من أزواجهم
وذرياتهم من يعبدونه فتقر بهم أعينهم فى الدنيا والآخرة . وأن يكونوا هداة مهتدين
دعاة إلى الخير أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر .

ولما بين سبحانه صفات المتقين المحلصين ذكر إحسانه إليهم بقوله :

(أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً) أى أولئك المتصفون بصفات السكال الموسومون بفضائل الأخلاق والآداب يجزون المنازل الرفيعة والدرجات العالية بصرهم على فعل الطاعات واجتنابهم للمعكرات ، ويبتدرون فيها بالتحية والإكرام ، ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام .
ونحو الآية قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » .

ثم بين أن هذا النعيم دائم لهم لا ينقطع فقال :
(خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً) أى مقيمين فيها لا يظعنون ولا يموتون ، حسنت منظراً ، وطابت مقيلاً ومنزلاً .

ونحو الآية قوله : « وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » .

ولما شرح صفات المتقين وأثنى عليهم أمر رسوله أن يقول لهم :
(قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم) أى قل لهؤلاء الذين أرسلت إليهم : إن الفاترين بتلك النعم الجليلة التى يتنافس فيها المتنافسون ، إنما نالوها بما ذكر من تلك المحاسن ، ولولاها لم يعتد بهم ربهم ، ومن ثم لا يعبا بكم إذا لم تعبدوه ، فما خلق الإنسان إلا ليعبد ربه ويطيعه وحده لا شريك له كما قال : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » .

(فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً) أى أما وقد خالفتم حكى ، وعصيتم أمرى ، ولم تعملوا عمل أولئك الذين ذكروا من قبل وكذبتم رسولى ، فسوف يلزمكم أثر تكذيبهم ، وهو العقاب الذى لا مناص منه ، فاستعدوا له ، وتجهئوا لذلك اليوم ، فكل آت قريب .

وخلاصة ذلك — لا يعتد بكم ربى لولا عبادتكم إياه ، أما وقد قصر الكافرون منكم فى العبادة ، فسيكون تكذيبهم مفضيا لعذابهم وهلاكهم فى الدنيا والآخرة .
والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصل ربنا على محمد وآله .

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة من الأحكام

اشتملت هذه السورة على عدة مقاصد :

(١) إثبات النبوة والوحدانية ، والنهي على عبدة الأصنام والأوثان ، وإثبات البعث والنشور وجزاء المكذبين بذلك مع ذكر شبهاتهم التي قالوها في النبي صلى الله عليه وسلم وفي القرآن ثم تفنيدها .

(٢) قصص بعض الأنبياء السالفين وتكذيب أممهم لهم ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(٣) العجائب الكونية من مدّ الظل وجعل الليل لباسا وجعل النهار معاشا وإرسال الرياح مبشرات بالأمطار ومروج البحرين: العذب الفرات ، والمالح الأجاج ، وجعل البروج في السماء ، وجعل الليل والنهار خلفا لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكورا .

(٤) الأخلاق والآداب من قوله : وعباد الرحمن إلى آخر السورة .

سورة الشعراء

هي مكية نزلت بعد سورة الواقعة إلا آية ١٩٧ ومن ٢٢٤ إلى آخر السورة مدنية وعدد آياتها ٢٢٧ .

وعن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطاني المئين مكان الإنجيل ، وأعطاني الطواسين مكان الزبور ، وفضلني بالحواميم والمفصل ، ما قرأهن نبي قبلي » .

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(أ) إن فيها بسطا وتفصيلا لبعض ما ذكر في موضوعات سالقتها .

(ب) إن كليهما قد بدئت بمدح الكتاب الكريم .

(ح) إن كليهما ختمت بإبعاد المكذبين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسّم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ
أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنَّ نَاشِئُنَا مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ
أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا
كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) .

شرح المفردات

لعل : هنا للاستفهام الذى يراد به الإنكار ، وقال العسكري : إنها للنهى ،
وباخع نفسك : أى مهلكها من شدة الحزن ، قال ذو الرمة :

ألا أيها الباخع الوجد نفسه شئاً نخته عن يديه المقادر

وأصل البَخْع : أن تبلغ بالذبح البخاع (بكسر الباء) وهو عرق مستبطن فقار
الرقبة ، وذلك يكون من المبالغة فى الذبح ، والأعناق : الجماعات ، يقال جاءت عنق
الناس : أى جماعة منهم ، وذكر : أى موعظة ، والمراد بالأبناء ما سيحل بهم من
العذاب ، وزوج : أى صنف ، والكريم من كل شئ : المرضي الحمد منه .

الإيضاح

(طسم) تقدم أن بينا أن المراد بثل هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور
التنبيه ، فهى أشبه بالألف ونحوها من حروف التنبيه ويا التى للنداء ، وتقرأ بأسمائها فيقال
طاء . سين . ميم .

(تلك آيات الكتاب المبين) أى هذه آيات القرآن البين الواضح الذى يفصل
بين الحق والباطل والنهى والرشاد .

(لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) أى أقاتل نفسك أسفا وجزنا على
ما فاتك من إسلام قومك وخوفك ألا يؤمنوا ؟ .

وقد يكون المعنى — لا تبخع نفسك ولا تهلكها أسى وحسرة على إيمانهم .

ونحو الآية قوله : « فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ » وقوله : « فَأَعْلَکَ

بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

ثم بين سبب النهى عن البَخْع بقوله :

(إن نشأ نزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين) أى لو شئنا

أن نزل عليهم من السماء آية تلجئهم إلى الإيمان وتفسرهم عليه كما تنقنا الجبل فوق قوم موسى حتى صار كالظلة فصار جماعاتهم خاضعين منقادين لها كرها - لنعلمنا ، ولكن جرت سنتنا أن يكون الإيمان اختياريا لا قسريا كما قال : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » ومن ثم نفذ قدرنا ، ومضت حكمتنا ، وقامت حججتنا ، على الخلق بإرسال الرسل إليهم ، وإنزال الكتب عليهم .

والخلاصة — إن القرآن وإن بلغ في البيان الغاية غير موصل لهم إلى الإيمان ، فلا تبالغ في الأسى والحزن ، فإنك إن فعلت ذلك كنت كمن يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك ، فكما أن الكتاب على وضوحه لم يفدهم شيئا ، فخرتك عليهم لا يحدى نفعاً ، وقد كان في مقدورنا أن تلجئهم إلى الإيمان إلهاء ، ولكن جرت سنتنا أن يكون الإيمان طوعا لا كرها ، ومن جرّاء هذا أرسلنا رسلنا بالعظات والزواجر ، وأنزلنا الكتب لتحذيرهم إلى سواء السبيل ، لكنهم ضلوا وأضلوا ، وما ربك بظلام للعبيد . ثم بين شدة شكيمتهم وعدم ارعائهم عما هم عليه من الكفر والضلال بغير الآيات الملمحة تأكيذا لصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص على إسلامهم فقال :

(وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين) أى وما يحىء هؤلاء المشركين الذين يكذبونك ويحسدون ما أتيتهم به - ذكر من عند ربك لتذكرهم به إلا أعرضوا عن استماعه وتركوا أعمال الفكر فيه ولم يوجهوا همهم إلى تدبره وفهم أسرارهِ ومغازيه ، وما كان أحرامهم بذلك وهم أهل الذكّن والفظنة ، ولكن طمس الله على قلوبهم فأكثرهم لا يعقلون .

وخلاصة ذلك — إنه لا يحدد لهم موعظة وتذكيرا إلا جددوا ما هو نقيض ذلك من إعراض وتكذيب واستهزاء . ثم أكّد إعراضهم بقوله :

(فقد كذبوا فسيأثمهم أبناء ما كانوا به يستهزئون) أى فقد كذب هؤلاء المشركون بالذكر الذى أتاهم من عند الله ثم انتقلوا من التكذيب إلى الاستهزاء ، وسيحل بهم عاجل العذاب وآجله فى الدنيا والآخرة كما قال : « وَتَعْلَمُونَ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » وقال : « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .
ونحو الآية قوله : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » .

وقصارى ذلك — إنهم كذبوا بما جئتهم به من الحق ، وإنه سيأثمهم لمخالفة صدق ما كانوا يستهزئون به من قبل بلا تدبير ولا تفكير فى العاقبة .
وبعد أن بين أنهم أعرضوا عن الآيات المنزلة من عند ربهم — ذكر أنهم أعرضوا عن الآيات التى يشاهدونها فى الآفاق فقال :

(أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ؟) أى أم أصرروا على ما هم عليه من الكفر بالله وتكذيب رسوله ولم يتأملوا فى عجائب قدرته ولم ينظروا فى الأرض وكثرة ما فيها من أصناف النبات المختلفة الأشكال والألوان مما يدل على باهر القدرة وعظيم سلطان ذلك العلى الكبير ؟ .

والخلاصة — كيف اجترأوا على مخالفة الرسول وتكذيب كتابه ، وإلهه هو الذى خلق الأرض وأنبت فيها الزرع والثمار والكروم على ضروب شتى وأشكال مختلفة تبهر الناظرين وتسترعى أنظار الغافلين .

ثم بين أنهم قوم فقدوا وسائل الفكر وعدموا التأمل والنظر فى الأكوان ، ومن ثم فهم جاحدون فقال :

(إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) أى إن فى ذلك الإثبات على هذه الأوضاع البديعة للدالات لأولى الأبواب على خالقها وقدرته على البعث والنشور ، فإن من أنبت الأرض بعد جدها وجعل فيها الحقائق الغناء والأشجار الفيجاء لن يعجزه أن ينشر فيها الخلائق من قبورهم ، ويعيدهم سيرتهم الأولى ، ولكن أكثر

الناس غفلوا عن هذا ، فجحذوا بها وكذبوا بالله ورسله وكتبه ، وخالفوا أوامره ، واجترحوا معاصيه ، والله در القائل :

تأمل في رياض الورد وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات على أهدائها ذهب سبيك
على قُضْبٍ انزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

والخلاصة — إن في هذا وأمثاله لآية عظيمة ، وعبرة جليلة ، دالة على ما يجب الإيمان به ، ولكن ما آمن أكثرهم مع موجبات الإيمان ، بل تمادوا في الكفر والضلالة ، وانهمكوا في الغي والجهالة .

وفي هذا ما لا يخفى من تقبيح حالهم ، وبيان سوء مآلهم .

ثم بشره بنصره وتأنيده وغلبته لأعدائه وإظهاره عليهم فقال :

(وإن ربك هو العزيز الرحيم) أى وإن ربك أيها الرسول الكريم هو الغالب على أمره والقادر على كل ما يريد ، وسينتقم لك من هؤلاء المكذبين على تكذيبهم بك وإشراكهم بى وعبادتهم للأوثان والأصنام وهو ذو الرحمة الواسعة بمن تاب من كفره ومعصيته ، فلا يعاقبه على ما سلف من جرّمه بعد توبته بل يغفر له حوبته .

والخلاصة — إن ربك عزّ كل شيء وقهره ، ورحم خلقه ، فلا يعجل بعقاب من عصاه ، بل يؤجله وينظره لعله يرجع عن غيه ، فإن تمادى أخذه أخذ عزيز مقتدر .

قصص موسى عليه السلام

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ
الَّذِينَ يَقُولُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي

وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ
يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا بآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (١٥) فَأَتَيْنَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)
وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا
وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي
حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَى أَنْ عَبَّدَتْ
بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه سوء حال المشركين وشدة عنادهم وتبجح لجاحهم - سلى
رسوله صلى الله عليه وسلم عن ذلك بأن قومه ليسوا ببديع في الأمم وأنه ليس
بالأوحد في الأنبياء المكذبين ، فقد كذب موسى من قبلك على ما أتى به من باهر
الآيات ، وعظيم المعجزات ، ولم تغن الآيات والنذر؛ فحاق بالمكذبين ما كانوا به
يستهزئون ، وأخذهم الله بذنوبهم وأغرقهم في اليم جزاء اجتراحهم للسيئات ،
وتكذيبهم بعد ظهور المعجزات ، وما ربك بظلام للعبيد .

الإيضاح

(وإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمِ فِرْعَوْنَ) أى واذا ذكر
لقومك وقت ندائه تعالى موسى عليه السلام من جانب الطور الأيمن ، وأمره له بالذهاب
إلى أولئك القوم الظالمين لأنفسهم بالكفر والمعاصي والظالمين لبني إسرائيل باستعبادهم

وذبح أبنائهم - قوم فرعون ذى الجبروت والطغيان ، والعتو والبهتان ، ليكون لهم في ذلك عبرة لو تذكروا ، فيرعوا عن غيرهم ، ويشوبوا إلى رشدهم ، حتى لا يحقيق بهم ما حاق بأولئك المكذبين من قبلهم ، إذ ابتلعهم اليم وأغرقوا جميعا .
ولا شك أن الأمر بذكر الوقت إنما هو ذكر لما جرى فيه كما أسلفنا من قبل .
ثم أتبع ذكر إرساله عليه السلام إنذارهم وتسجيل الظلم عليهم وتعجيب موسى من حالهم التي بلغت غاية الشفاعة ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله فقال :

(ألا يتقون ؟) أى قال الله لموسى : ألا يتقى هؤلاء القوم ربهم ويحذرون عاقبة بغيتهم وكفرهم به ؛ فأجاب موسى عن أمر ربه متضرعا إليه .
(قال رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى) أى قال موسى : رب إني أخاف تكذيبهم إياى فيضيق صدرى تأثرا منه ولا ينطلق لسانى بأداء الرسالة ، بل يتجلجج بسبب ذلك ، كما يرى أن كثيرا من ذوى اللسن والبلاغة إذا اشتد بهم الغم وضاق منهم الصدر تلجلجت ألسنتهم حتى لا تكاد تبين عن مقصدهم .
وفى هذا تمهيد العذر فى استدعاء عون له على الامتثال وإقامة الدعوة على أتم وجه ، فإن ما ذكر ربما أوجب الإخلال بالدعوة ، وعدم إلزام الحجة ومن ثم قال :
(فأرسل إلى هرون) أى فأرسل جبريل عليه السلام إلى هرون واجعله نبيا وأزرنى به واشدد به عضدى ، فبإرساله تحصل أغراض الرسالة على أتم وجه .
ثم زاد سببا آخر فى الحاجة إلى طلب العون وهو خوفه أن يقتل قبل تبليغ الرسالة فقال :

(ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون) أى ولهم على تبعة جرم يقتل القبطى خباز فرعون بالوكزة التى وكز بها ، فأخاف إن أنا جئتهم وحدى أن يقتلوني من جرأ ذلك - وهذا اختصار لما بسط من القصة فى موضع آخر ؛ ومقصده عليه السلام بهذا طلب دفع بلوى قتله ، خوف فوت أداء الرسالة ونشرها بين الملأ كما هو دأب

أولى العزم من الرسل ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوقع مثل هذا حتى نزل قوله تعالى : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .

وفى هذا إيماء إلى أن الخوف قد يحصل من الأنبياء كما يحصل من غيرهم .
والخلاصة — إن موسى طلب من ربه أمرين : دفع الشر عنه ، وإرسال هرون معه ، فأجابه إليهما .

(قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون) أى قال له : لا تخف من شيء من ذلك ، فاذهب أنت وأخوك متعاضدين إلى ما أمرتكما به مؤيدين بآياتنا الدالة على صدقكما ، وإني ناصركما ومعينكما عليه ، وهذا كقوله : « إِنِّي مَعَكُمْ أَتَمَعُ وَأَرَى » .
(فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى إسرائيل) أى فأتياه وقولا له : إن الله أرسلنا إليك لتطلق سبيل بنى إسرائيل وتخليهم وشأنهم ، ليذهبوا إلى الأرض المقدسة موطن الآباء والأجداد التى وعدنا الله بها على أسنة رساله ، وكانوا قد استعبدوا أربعمئة سنة .

قال القرطبي : فانطلقا إلى فرعون فلم يأذن لهما سنة في الدخول عليه ، ووجد الرسول هنا ولم يثنه كما جاء في قوله : « إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ » لأن رسولا يستعمل للمفرد وغيره كما قال الشاعر :

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول
كما يستعمل كذلك عدو وصديق كما جاء في قوله : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي » .

فأجابه فرعون على وجه التقريع والازدراء وذكر أمرين فقال :
(١) (قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ؟) أى أبعد أن ربيناك في بيوتنا ولم تقتلك في جملة من قتلنا ، وأنعمنا عليك بنعمنا ركبنا من الزمن تقابل الإحسان بكفران النعمة ، وتواجهنا بمثل تلك المقالة ؟ .

روى أنه لبث فيهم ثمانى عشرة سنة ، وقيل ثلاثين سنة .
(٢) (وفعلت فعملتك التى فعلت وأنت من الكافرين) أى وقتلت ذلك

القبلى الذى وكرته وهو من خواصى ، فكنت من الجاحدين لنعمتى عليك من التربية والإحسان إليك .

وخلاصة ما سلف — إنه عدد نعماء عليه أولا من تربيته وإبلاغه مبلغ الرجال ثم بتوبيخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وهو من خواصه ، وهو بهذا أيضا سيكون قد كفر نعمته وجحد فضله .

فأجاب موسى عن الأمر الثانى وترك أمر التربية لأنها معلومة مشهورة ، ولا دخل لها فى توجيه الرسالة إليه ، فإن الرسول إذا كان معه حجة ظاهرة على رسالته تقدم بها إلى المرسل إليهم ، سواء أكانوا أنعموا عليه أم لم يُنعموا .

(قال فعلتها إذا وأنا من الضالين) أى قال موسى بحجبا فرعون : فعلت هذه الغفلة التى ذكرت وهى قتل القبلى وأنا إذ ذاك من الجاهلين بأن وكرتى تأتى على نفسه ، فأنى إنما تعمدت الوكر للتأديب ، فأدى ذلك إلى القتل .

(ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربه حكما وجعلنى من المرسلين) أى فخرجت هاربا منكم حين توقعت مكروها يصيبنى حين قيل لى : « إِنَّ الْمَلَأَى يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ » فوهب لى ربه علما بالأشياء على وجه الصواب وجعلنى من المرسلين من قبله لهداية عباده وإرشادهم إلى النجاة من العذاب .

وخلاصة ما قال — إن القتل الذى توبخنى به لم يكن مقصودا لى ، بل كنت أريد بوكزه التأديب خسب ، فلا أستحق التخويف الذى أوجب فرارى ، وإن أتم أسأتم لى فقد أحسن لى ربه فوهب لى فهم الأمور على حقائقها وجعلنى من زمرة عباده المخلصين .

ثم بين له أنه وإن أسدى النعمة إليه فقد أساء إلى شعبه عامة فقال : (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل) يقال عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبدا ، وتمن من المنة بمعنى الإنعام : أى وما أحسنت لى وربيتنى إلا وقد أسأت لى بنى إسرائيل جملة فجعلتهم عبيدا وخدماء تصرفهم فى أعمالك وأعمال رعيقتك الشاقة .

وخلاصة ذلك — أفيئى إحسانك إلى رجل منهم بما أسألت به إلى مجموعهم؟ فهو ليس بشيء إذا قيس بما فعلته بالشعب أجمع، وكأنه قال: إن هذا ليس بنعمة، لأن الواجب عليك ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومي، فكيف تذكر إحسانك إلى على الخصوص.

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَنْ اتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَ لَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١).

الإيضاح

لما دخل موسى وهرون على فرعون وقالاه : إنا رسولا رب العالمين أرسلنا إليك هدايتك إلى الحق وإرشادك إلى طريق الرشده ، وغلباه بالحجة رجع إلى معارضة موسى في قوله : « رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

(قال فرعون وما رب العالمين ؟) أى قال لموسى : إنك تدعى أنك رسول من رب العالمين فما هو ؟ إذ كان قد قال لقومه : « مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي » . فأجابه موسى عن سؤاله :

(قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين) أى رب العالمين هو خالق العالم العلوى وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات ، والعا.

السفلى وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوان ونبات وما بين ذلك من هواء وطير ، إن كانت لكم قلوب موفقة وأبصار نافذة .

حينئذ عجب فرعون من كلام موسى والتفت إلى الملائكة حوله معجبا لهم من ذلك المقال .

(قال لمن حوله ألا تسمعون ؟) أى التفت فرعون إلى الملائكة والرؤساء من حوله وقال لهم على سبيل التهمك والاستهزاء : ألا تعجبون من مقالته وزعمه أن لكم إلهًا غيرى ؟ .

ثم زاد موسى وصف إلههم إيضاحا وبيانا .

(قال ربكم ورب آبائكم الأولين) أى إنه هو خالقكم وخالق من قبلكم من آبائكم وأجدادكم .

وقد انتقل بهم موسى من النظر فى الآفاق وما فيها من باهر الأدلة إلى النظر فى الأنفس وما فيها من عجيب الصنع ، فإن التناسل المستمر فى النبات والحيوان والإنسان وما فيها من العجائب لأوضح دلالة من النظر فى الآفاق .

ولما لم يستطع ردا لما جاء به أورد ما يشكك قومه فى حسن تقديره للأمور وفهمه لما يقول :

(قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) أى قال فرعون لقومه : إن رسولكم لا عقل له ، إذ يقول قولاً لا يعرفه ولا تفهمه ، فهو يدعى أن ثمة إلهًا غيرى .

ثم وصف موسى الإله بأنه خالق الأكوان ، ورب الزمان والمكان .

(قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون) أى قال موسى : إن ربكم هو الذى جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها مع انتظام مداراتها وتغير المشارق والمغارب كل يوم ، إن كان لكم عقول تفقهون بها ما يقال لكم وتسمعون بها ما تسمعون ، إذ فى كل

ذلك أدلة على أن هناك إلها مصوراً صور هذه العوالم كلها وأبدعها وزينها ورتبها ونظمها على أحسن النظم .

وقد لا ينهم أولاً وعاملهم بالرفق حيث قال لهم : إن كنتم موقنين ، ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم وأغلظ لهم فى الرد وعارضهم بمثل مقالهم بقوله إن كنتم تتعقلون ، لأنه أوفق بما قبله من رد نسبة الجنون إليه .

ولما قامت الحجة على فرعون عدل إلى القهر واستعمال القوة ولبس لموسى جلد النمر .

(قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) أى قال : لأجعلنك فى زمرة الذين فى سجونى على ما تعلم من فظاعة أحوالها ، وشديد أهوالها ، وكانت سجنونه أشد من القتل ، لأنه إذا سجن أحدا لم يخرج به حتى يموت ، وكان يطرحه فى هوة عميقة فى مكان تحت الأرض وحده ، وفى توعده بالسجن ضعف منه لما يروى أنه كان يفرع من موسى فرعا شديدا .

وحينئذ اضطرب موسى أن يترك الأدلة العقلية وراءه ظهرياً ويلجأ إلى المعجزات وخوارق العادات .

(قال أولو جئتكم بشيء مبين ؟) أى أتفعل هذا ولو جئتكم بحجة بينة على صدق دعواى وهى المعجزة الدالة على وجود الإله القادر وحكمته ، وعلى صدق دعوى من ظهرت على يديه .

وحين سمع فرعون هذا الكلام من موسى .

(قال فأت به إن كنت من الصادقين) فى دعوى الرسالة ، فإن من يدعى النبوة لابد له من حجة على صدق ما يدعى ، وقد أمره بذلك ظنا منه أنه يقدر على معارضته .

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِمَوْلَايَ هَؤُلَاءِ لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تُوْكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٌ (٣٧).

شرح المفردات

مبين : أى ظاهر أنه ثعبان بلا تمويه ولا تخييل كما يفعل السحرة ، الملائكة :
أشراف القوم ، عليم : أى خبير بفن السحر حاذق فى تلك الصنعة ، فماذا تأمرون ؟
أى فم تشيرون ، أرجه وأخاه : أى أخر أمرها ولا تباغتهما بالقتل خيفة الفتنة ،
حاشرين : أى اجعل رجال الشرطة يحشرون السحرة .

الإيضاح

(فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين) أى فبعد أن قال له فرعون مقالته ألقى عصاه فإذا هى ثعبان واضح لابس فيه ، ولا تخييل ولا تمويه ، وقد روى أنها لما صارت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون ، فقال : بالذى أرسلاك إلا أخذتها ، فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت .
وقد جاء فى آية أخرى : « كَانَهَا جَانٌّ » والجان الصغير من الحيات ، تشبيها لها به من جرأ الخفة والسرعة .

ولما أتى موسى بهذه الآية قال له فرعون : هل هناك غيرها ؟ قال نعم .
(ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين) أى وأدخل يده فى جيبه ثم أخرجها فإذا هى تضيء الوادى من شدة نورها ، وكأنها فلقة قمر ، قال ابن عباس : أخرج موسى يده من جيبه فإذا هى بيضاء تلمع للناظرين ، لها شعاع كشعاع الشمس يكاد يعشى الأبصار ويسد الأفق .

ولما رأى فرعون هذه الحجة بادر بالتكذيب والعناد وذكر لأشرف قومه أموراً ثلاثة :

(١) (قال المملأ حوله إن هذا لساحر عليم) أى قال لرؤساء دولته وأشرف قومه الذين حوله ليروج عليهم بطلان ما يدعيه موسى : إن هذا الرجل لبارع فى السحر حاذق فى الشعوذة ، ومراده من هذا أن ما ظهر على يديه إنما هو من قبيل السحر لامن وادى المعجزات .

ثم هيّجهم وحرّضهم على مخالفته والكفر به والتنفير منه بقوله :

(٢) (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) أى يريد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا السحر ، فيكثر أعوانه وأتباعه ، ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم .

(٣) (فماذا تأمرون) أى فأشيروا علىّ ماذا أصنع ؟ وبم أدافعه عما يريد ؟ ومثل هذا القول يوجب جذب القلوب والتضافر فى مكافحة العدو والتغلب عليه . جهد المستطاع .

قال أبو السعود : بهر سلطان المعجزة وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه ، والامثال بأمرهم ، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلاً بالرأى والتدبير ، وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبه إلى إخراجهم من الأرض لتنفيرهم منه .

(قالوا أرجه وأخاه وابتعت فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) أى قالوا : أخر البت فى أمرها ولا تعاجلها بالعقوبة حتى تجمع لهما من مدائن مملكته ، وأقاليم دولته ، كل سحار عليم ، ثم تقابلهم به وجهاً لوجه ويأتون من ضروب السحر ما يستطيعون به التغلب عليه ، فتكون قد قابلت الحجة بالحجة وقرعت الدليل بمثله ، ويكون لك النضر والتأييد عليه ، وتجتذب قلوب الشعب إليك .

وقد كان هذا من تسخير الله تعالى له ، ليجتمع الناس في صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه للناس في وضوح النهار جورة .
 روى أن فرعون أراد قتله فقال له الملائكة : لا تفعل . فإنك إن قتلتته أدخلت على الناس شبهة في أمره ، وأشاروا عليه بإفاد حاشرين يجمعون له كل سحر عليم ، ظلنا منهم أنهم إذا كثروا غلبوه على أمره ، وتم لفرعون الغلب .
 فأخذ بمشورتهم وأجابهم إلى طلبتهم .

فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَأَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرٌ إِنْ كُنَّا نَخُنُّ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَتَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَاصِرٌ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)

شرح المفردات

المِيقَاتِ : ما وقت به أى حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الإحرام ، واليوم المعلوم : هو يوم الزينة الذى حدده موسى في قوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشرون الناس

ضخى ، وعزة فرعون : أى قوته التى يمتنع بها من الضيم ، تلقف : أى تبتلع بسرعة ،
يأفكون : أى يقلبونه عن وجهه وحقيقته بكيدهم وسحرهم ، من خلاف : أى بقطع
الأيادى اليمنى والأرجل اليسرى ، لاضير : أى لا ضرر علينا فيما ذكرت ، منقلبون :
أى راجعون .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه هذه المناظرة بين موسى عليه السلام والقبط فى سورة الأعراف
وسورة طه وفى هذه السورة .

وخلصتها — إن فرعون وقومه أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فأبى الله
إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وذلك شأن الإيمان والكفر والحق والباطل
ما تقابلا إلا غلب الإيمان الكفر : « بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا
هُوَ زَاهِقٌ وَلكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ » ومن ثم لما جاء السحرة وقد جمعهم من
أقاليم مصر العليا وكانوا أربع الناس فى فن السحر وأشدهم خداعا وتخيلة ، وكانوا جمعا
كثيرا وجما غفيرا أحضروا مجلس فرعون ، فطلبوا منه الأجر إن هم غلبوا ، فأجابهم
إلى ما طلبوا ، وزادهم عليه أن سيجعلهم من بطانته ومن المقر بين إليه ، ولكن المناظرة
انتهت بغلبة موسى لهم وهزيمة من استنصرهم ، وإيمانهم بموسى ، وحينئذ عاد
إلى المكابرة والعناد ، وشرع يتهدد السحرة ويتوعدهم ويقول : (إنه لكبيركم الذى
علمكم السحر) ولكن ذلك لم يزدكم إلا إيمانا وتسليما ، لعلمهم ما جهله قومهم من أن
هذا لا يصدر عن بشر إلا إذا أيداه الله وجعله حجة على صدق ما يدعى ، ومن ثمة
قالوا له بعد أن توعدهم بقطع الأيدى والأرجل : إن ذلك لا يضيرنا ، وإن المرجع
إلى الله ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا ، وإنا نرجو أن يغفر لنا ربنا خطايانا ،
لأننا سبقنا قومنا من القبط إلى الإيمان ، ويروى أنه قتلهم جميعا .

الإيضاح

(فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) أى إنهم بعد أن أشاروا على فرعون بتأخير البت فى أمر موسى ، وبأن من الخير له أن يجمع السحرة ، ليظهر عند حضورهم فساد قوله - رضى بما أشاروا به واستقر عليه رأى وأحب أن تقع المناظرة فى يوم عيد لهم ، لتكون بمحضر الجمل الغفير من الناس ، ويتم الله نوره ويظهر الحق على الباطل باطنه وفضله .

(وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) أى وقيل للناس حثا لهم على المبادرة إلى الاجتماع ومشاهدة ما يكون من الجانبين : هل أنتم مجتمعون فى ذلك الميقات لتروا ما سيكون فى ذلك اليوم المشهود ، وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ، وطلباً أن يكون يجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم ، فوقع ذلك من موسى الموقع الذى يريده ، لأنه يعلم أن حجة الله هى الغالبة ، وحجة الكافرين هى الداحضة ، وفى ظهور حجة الله بجمع من الناس زيادة فى الاستظهار المحقين ، وقهر المبطلين .

(لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) أى إنا نرجو أن يكون لهم الغلبة فنتابعهم ونستمر على دينهم ولا نتبع دين موسى .

(فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين) أى فلما جاء السحرة مجلس فرعون طلبوا منه الإحسان ببذل المال والتقرب إليه إن هم غلبوا ، فأجابهم إلى ما طلبوا وزاد على هذا أن وعدهم بأنهم سيكونون من جلسائه وخاصة بطانته .

بعدئذ عادوا إلى مقام المناظرة وقالوا يا موسى إما أنت تلقى وإما أن نكون نحن الملقين .

(قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فآلقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) أى قال لهم موسى ألقوا ما تريدون إلقاءه مما يكون حجة لكم

على إبطال ما أَدْعِيهِ من المعجزات ، فَأَتَقُوا مَا مَعَهُمْ من الحبال والعصى وقد كانت مطلية بالزئبق والعصى مجوفة مملوءة به ، وقالوا بقوة فرعون وجبروته : إنا لنحن الغالبون ، فلما حيت حرارة الشمس اشتدت حركتها وصارت كأنها حيات تدب من كل جانب ، وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

وجاء في سورة طه : « فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى . فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى . »

وقد استقرغوا الوسع وقاموا بما ظنوا أن فيه الكفاية بل فوقها وأن النصر قد كتب لهم .

(فأتى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون) أى وحين أتى موسى عصاه ابتلعت ما كانوا يقلبون صورته وحاله الأولى بتمويههم وتخيل الحبال والعصى أنها حيات تسعى .

وجاء في آية أخرى : « فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . »

وقد قامت الحجة لموسى عليهم واستبان لهم أن هذا ليس من متناول أيديهم . (فأتى السحرة ساجدين) أى غرّوا سجدوا لله ، لأنهم قد علموا أن هذا الذى فعلوه هو منتهى التخيل السحري ، فلما ابتلعت الحية ما زوروه أيقنوا أن هذا من قدرة فوق ما عرفوا ، وما هو إلا من قوة آتية من السماء لتأييد موسى ، حينئذ خروا سجدوا لله القوى القاهر فوق عباده .

وفى التعبير بالإلقاء إشارة إلى أنهم لم يمتالكوا أنفسهم من الدهش حتى كأنهم أخذوا فطرحوا .

ثم فاهوا بما يجيش فى صدورهم وتنطوى عليه جوانحهم .

(قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون) أى آمنا برب العالمين الذى دعا إليه موسى أول ما تكلم مع فرعون .

وفي هذا إيماء إلى عزل فرعون عن الربوبية ، وأن سبب إيمانهم ما أجره الله على يدي موسى وهرون من المعجزات .

وبعد أن حصص الحق ، ووضح الصبح لذي عينين ، لجأ فرعون إلى العناد والمكابرة وشرع يهدد ويتوعد ، ولكن ذلك لم يجد في السحرة شيئا ، ولم يزد هم إلا إيمانا وتسليما ، إذ كان حجاب الكفر قد انكشف ، واستبان لهم نور الحق ، وعلموا ما جهل قومهم وأن القوة التي تؤيد موسى قوة غيبية قد أيده الله بها وجعلها دليلا على صدق ما يدعى .

(قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟) أى أتؤمنون به قبل أن تستأذنوني وقد كان ينبغي ذلك ، وألا تفتاتوا علىّ فأني أنا الحاكم المطاع ؟ .

ثم التمس لإيمانهم عذرا آخر غير انبلاج الحق ، ليعمى على العامة ويحصر فهم عن وجه الحق فقال :

(إنه لكبيركم الذي علمكم السحر) فأنتم فعلتم ذلك عن مواطاة بينكم وبينه . ولا شك أن هذا تضليل لقومه ، ومكابرة ظاهرة البطالان ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون هو كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ . ثم توعدهم فقال :

(فلسوف تعلمون) وبال ما فعلتم وسوء عاقبة ما اجترحتم . ثم بين ذلك بقوله :

(لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين) أى لأقطعن اليد اليمنى من كل منكم والرجل اليسرى ، ثم لأصلبنكم أجمعين بعد ذلك .

فأجابه غير مكترئين بقوله ، ولا عابئين بتهديده ، بأمرين في كل منهما دليل على اطمئنان النفس وبرد اليقين :

(١) (قالوا لاضرير إنا إلى ربنا منقلبون) أى قالوا لاضرر علينا فى تنفيذ وعيدك ، ولا نبالى به لأن كل حى لا محالة مائت .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد .
ونحو ذلك قول على كرم الله وجهه : لا أبالى أوقعت على الموت أم وقع الموت على .

(٢) (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ؟) أى ولأننا نؤمل أن يغفر لنا ربنا ما فعلنا من السحر واعتقدناه من الكفر من أجل أن كنا أول من آمن من الجماعة الذين شهدوا الموقف ، انقيادا للحق ، وإعراضا عن زخرف الدنيا وزينتها .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلْنَا
فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ
لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)
فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا
لَمَذْكُورُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى
أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣)
وَأَرْزَلْنَا تَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا
الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) .

شرح المفردات

أسرى : سار ليلاً ، متبعون : أى يتبعكم فرعون وجنوده ، والشرذمة الطائفة القليلة من الناس ، غائضون : أى فاعلون ما يغيظنا ويغضبنا ، حاذرون : أى من دأبنا بالحذر واستعمال الحزم فى الأمور ، كنوز : أى أموال كنزوها وخزنها فى باطن الأرض ، ومقام كريم : أى قصور عالية ودور فخمة ، أورثناها : أى ملكناها لهم .
تمليك الميراث ، مشرقين : أى داخلين فى وقت الشروق ، تراءى الجمعان : أى تقاربا بحيث رأى كل منهما الآخر ، لمدركون : أى سيدركوننا ويلحقون بنا ، كلا : أى لن يدركوكم ، انطلق : انشق ، الفرق : الجزء المنفرد منه ، والطود : الجبل ، سوارفنا : أى قربنا . وثم : أى هناك ، لآية : أى لعظة وعبرة توجب الإيمان بموسى .

المعنى الجملى

أقام موسى بين ظهرانى المصريين يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات ، فلم يزدهم ذلك إلا عتوا واستكبارا ، يرشد إلى ذلك قوله فى سورة الأعراف : « وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ » الآيات ، فأمره الله أن يخرج بنى إسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضى بهم حيث يؤمر ، ففعل ما أمر به وخرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون خُلِيًّا كثيرة .

فلما وصل علم ذلك إلى فرعون أرسل فى المدائن حاشرين يجمعون له الجند ، ثم قوى نفسه ونفس أصحابه بأن وصف بنى إسرائيل بالقلّة وأن أفعالهم تضيق بها الصدور وتوجب الغيظ ، وهو مستعد أن يبيدهم بما لديه من قوة وجند ، ثم تبعهم هو وجنوده وقت الشروق ، فلما تقارب الجمعان خاف أصحاب موسى وقالوا إن فرعون وقومه لاحقون بنا لا محالة ، فقال لهم موسى لن يدركوكم وإن ربى سيهدينى إلى طريق النجاة ؛ وحينئذ أوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فاضرب فانطلق حتى صار شكل الماء المتراكم كالجبل العظيم ، فصار هو وقومه فى اليبس حتى جاوزوا

البحر من الجانب الآخر ، ودخل فرعون وجنوده من الجانب الأول فانطبق البحر عليهم وأغرقوا أجمعون .

وهذه آية كان من حقها أن توجب الاعتبار والعظة فيؤمن به من بقى من المصريين لكنهم لم يفعلوا .

الإيضاح

(وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون) أى وأوحينا إليه أن سر بعبادى ليلا حتى إذا اتبعوكم مصبحين كان لكم تقدم عليهم فلا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر ، بل يكونون على إثركم حين تلجونه فيدخلون مدخلكم فأطبقه عليهم فيغرقون .

وقد جاء فى سفر الخروج من التوراة فى الإصحاح الحادى عشر : أن الرب أمر أن يطلب كل رجل من صاحبه ، وكل امرأة من صاحبها أمتعة ذهب وأمتعة فضة ، وأن الله سيميت كل بكر فى أرض مصر من الإنسان والحيوان ، وأمرهم أن يذبح أهل كل بيت شاة فى اليوم الرابع عشر من شهر الخروج ، وأن ياطخوا القائمتين والعتبة العليا من الدار ، وأن يأكلوا اللحم تلك الليلة مشويا بالنار مع فطير ، وأمرهم أن يأكلوا بمجلة ، ويأكلوا الرأس مع الأكارع والجوف ، وهذا هو (فصح الرب) وهذا الدم علامة على بيوت بنى إسرائيل حتى يحفظ كل بكر منهم ويتخطاهم الموت إلى أبكار المصريين ، ويكون أكل الفطير سبعة أيام ، ويكون هذا فريضة أبدية تذكارا بالخروج من مصر من يوم ١٤ من شهر أيبب إلى ٢١ من هذا الشهر كل سنة . وهكذا أمر موسى قومه بذلك ففعلوا كل هذا ونجا أولادهم وصار ذلك سنة أبدية .

ولما مات الأبكار من الإنسان والحيوان فى جميع بلاد مصر فى نصف الليل اشتغل الناس بالأموات ، وأخذ بنو إسرائيل غنهم وبقرهم وأخذوا عجنيهم قبل أن يختمر ، ومعاينهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم ، وفعل بنو إسرائيل ما أمرهم

الرب وارتحلوا من رمسيس إلى سكوت وكانوا ستمائة ألف ماش من الرجال ما عدا الأولاد ، وخبزوا العجين الذى أخرجوه من مصر خبز مَلَّةٍ (فطيرا) اه .

وكانت إقامة بنى إسرائيل فى مصر ٤٣٠ سنة ، وليلة الخروج هى عيد الفصح عندهم إلى الأبد .

(فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين) أى فلما أسرى بهم موسى وأخبر فرعون بما صنعوا ، أرسل فى مدائن مصر رجالا من حرسه ليجمعوا الجند فيتبعوهم ويردوهم إلى مصر ويعذبوهم أشد التعذيب على ما فعلوا .

ثم قوى فرعون جنده فى اقتفاء آثارهم بأمور :

(١) (إن هؤلاء لشردمة قليلون) فيسهل اقتفاؤهم وإرجاعهم وكبح جماحهم فى الزمن الوجيز .

(ب) (وإنهم لنا لغائظون) أى وإنهم بين آونة وأخرى يصدر منهم ما يخل بالأمن ويحدثون الشغب والاضطراب فى البلاد — إلى أنهم ذهبوا بأموالنا التى استعاروها .

(ح) (وإنا لجميع حاذرون) أى وإن لنا أن نحذر عاقبة أمرهم قبل أن يستفحل خطبهم ويصعب رأب صدعهم ، ونحن قوم من دأبنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور .

والخلاصة — إنه أشار أولا إلى عدم الموانع التى تمنع اتباعهم من قلة وجود الشوكة لهم ، ثم إلى تحقق ما يدعو إليه من فرط عداوتهم لنا ، ووجوب التيقظ فى شأنهم حثا منه عليه .

وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن ، لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه .

وخلاصة مقاله — إن هؤلاء عدد لا يعبأ به ، وإن فى مقدورنا أن نبيدهم بأهون الوسائل ، ولا خوف منهم إذا نحن اتبعنا آثارهم ورددناهم على أعقابهم

خاسئين، حتى لا يعودوا كرة أخرى إلى الإخلال بالأمن والهرج والمرج والاضطراب في البلاد، وهذا ما يقتضيه الحزم واليقظة في الأمور.

والذى نجزم به أن بنى إسرائيل كانوا أقل من جند فرعون، لكننا لانجزم بعدد معين، وما فى كتب التاريخ والتوراة مبالغات يصعب تصديقها ولا ينبغي التعويل عليها، خير لنا ألا نشغل أنفسنا باستقصاء تفاصيلها، وقد فند ابن خلدون فى مقدمة تاريخه هذه الروايات وأبان ما فيها من مغالاة لا يقبلها العقل ولا تثبت أمام البحث العلمى الصحيح.

وقد جازى الله فرعون وجنوده بما أرادوا أن يجازوا به بنى إسرائيل فأهلكوا جميعاً كما قال :

(فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك) أى فأخرجناهم من النعيم إلى الجحيم وتركوا المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والملك والجاه العظيم الذى لم يسمع بمثله، وقد كان الأمر حقاً كما قلنا.

ثم بين ما آل إليه أمر بنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر :

(وأورثناها بنى إسرائيل) أى وملسكنا بنى إسرائيل جنات وعيونا ماثلة لها فى أرض الميعاد التى ساروا إليها، وفى هذا بيان لأن حالهم تحول من الاستعباد والرق إلى الترف والنعيم فى الجنات والعيون والمقام الكريم.

ونحو الآية قوله : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » .

(فأتبعوهم مشرقين) أى فخرجوا من مصر فى حفل عظيم وجمع كثير من أولى الحل والعقد من الأمراء والوزراء والرؤساء والجند، فوصلوا إليهم حين شروق الشمس .

ثم ذكر ما عرا بنى إسرائيل من الخوف حين رؤيتهم فرعون وقومه .

(فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون) أى فلما رأى كل من

الفريقين صاحبه قال بنو إسرائيل : إن فرعون وجنوده سيلحقوننا ويقتلوننا ، وكانوا قد قالوا لموسى من قبل : إنا قد أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، وكانوا يذبحون أبناءنا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا يدركوننا ويقتلوننا .

والخلاصة — إنا لمتابعون وسنهلك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد ؛ لأننا قد انتهى بنا السير إلى سيف البحر (ساحله) وقد أدر كنا فرعون وجنوده .

فأجابهم موسى وطأنهم وقوى نفوسهم .

(قال كلا إن معى ربي سيهدين) أى قال لهم موسى : إنه لن يصلحكم شيء مما تحذرون ، فإن الله هو الذى أمرنى أن أسير بكم إلى هنا ، وهو سبحانه لا يخلف وعده ، فهو :

(١) سيهدينى إلى طريق النجاة والخلاص .

(٢) سينصرنى عليهم ويتكفل بمعونتى .

ثم ذكر سبحانه كيف هداه ونجاه وأهلك أعداءه فقال :

(وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانقلب فكان كل فرق كالطود العظيم) أى وأوحينا إليه أن اضرب بعصاك البحر فاضرب فانقلب فكان كل قطعة من الماء كالجبل العالى وصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط منهم طريق وصار فيه طاقات ينظر منها بعضهم إلى بعض ، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فصار ييسا كوجه الأرض كما قال فى آية أخرى : « فَأَضْرِبْ لَهُمُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى » .

(وأزلفنا ثمم الآخرين) أى وفر بنا فرعون وجنوده من البحر وأدبناهم منه .

(وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين) أى وأنجينا موسى

وبنى إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم ، فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ولم يبق منهم أحدا .

والخلاصة — إنه لما خرج أصحاب موسى وتنام أصحاب فرعون انطبق عليهم البحر فأغرقهم جميعاً .

(إن في ذلك لآية) أى إن فى الذى حدث فى البحر لعبرة دالة على قدرته تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام ، من حيث كان معجزة له ، وتحذيراً من الإقدام على مخالفة أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم .
ثم بين أنهم لم تُجدهم الآيات والنذر شيئاً .

(وما كان أكثرهم مؤمنين) أى وإن أكثرهم لم يؤمنوا مع ما رأوا من الآيات العظام والمعجزات الباهرات ..

وفى ذلك تسليمة لرسوله صلى الله عليه وسلم فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات على يديه ، فنبهه بهذا الذكر إلى أن له أسوة بموسى عليه السلام ، فإن ما ظهر على يديه من المعجزات التى تبهر العقول لم يمنع من تكذيب أكثر القبط له وكفرهم به مع ما شاهدوه فى البحر وغيره ، وتكذيب بنى إسرائيل فإنهم بعد أن نجوا عبدوا العجل وقالوا لن نؤمن لك حتى ترى الله جهرة .

ثم توعدهم وقال :

(وإن ربك هو العزيز الرحيم) أى وإن ربك هو المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه .

وفى هذا بشارة لنبيه بأن النصر سيكتب له ، والفوز سيكون جليقه كما قال :
« وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » .

قصص إبراهيم عليه السلام

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ آبَاءَنَا فَانْظُرْ لَهُمْ عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَ نَادِيَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢)

أَوْ يَنْفَعُوكُمْ أَوْ يُضُرُّوكُمْ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ
يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ
الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ
يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ
(٨٠) وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ
الدِّينِ (٨٢) .

المعنى الجملى

لما ذكر في أول السورة شدة حزنه على كفر قومه وعدم استجابتهم دعوته ،
ثم ذكر قصص موسى عليه السلام ليكون في ذلك تسلياً له ، وليعلم أنه ليس بيدع
في الرسل وأن قومه ليسوا بأول الأمم عنادا واستكبارا ، فقد أتى موسى بياهر
المعجزات وعظيم الآيات ولم يؤمن به من قومه إلا القليل ، ولم يؤمن به من المصريين
إلا النذر اليسير - أردف ذلك بقصص إبراهيم أبي الأنبياء وخليل الرحمن وكليم الله ،
ليعلم أن حزنه لكفران قومه كان أشد ، وآلامه كانت أعض ، فهو كان يرى أن أباه
وقومه صائرون إلى النار ، وهو ليس بمستطيع إنقاذهم ، وقد أكثر حجاجهم حتى
حججهم ولم يجد ذلك فيهم شيئا ، بل ركنوا إلى التقليد بما ورثوه عن الآباء والأجداد ،
وقد أبان لهم أثناء حجاجه أن أصنامهم لا تغنى عنهم شيئا ، فهي لا تسمع دعاءهم
« وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ » ولو سمعت لم تغن عنهم شيئا . ثم ذكر لهم صفات
الرب الذي ينبغي أن يعبد وفصلها أتم التفصيل .

الإيضاح

(وائل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟) أى وائل على أمثلك
أخبار إبراهيم إمام الحنفاء ليعتدوا به فى الإخلاص والتوكل على الله وعبادته وحده

لاشريك له والتبرى من الشرك وأهله ، وقد أوتى الرشد من صغره ، فهو من حين نشأ وترعرع أنكر على قومه عبادة الأصنام فقال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ؟ وهو مشاهد راء له ، ليعلمهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة في شرع ولا عقل .

روى أن أصنامهم كانت من ذهب وفضة ونحاس وحديد وخشب ، فأجابوه إجابة المفتخر بما يفعل ، المزهو بحميل ما يصنع :

(قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) أى قالوا نعبد الأصنام ونقيم على عبادتها طوال ليلنا ونهارنا . وبعد أن أوحوا له طريقتهم نبههم إلى فساد معتقدهم بسوق الدليل الذى يرشد إلى بطلانه .

(قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون ؟) أى قال لهم : هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم فيستجيبوا لكم ببذل معونة أو دفع مضرة ؟ ذاك أن الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجئ إليه في المسألة ليعرف مراده إذا سمع دعاءه ثم يستجيب له ببذل المعونة من جلب نفع أو دفع ضرر ، فإذا كان ما تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم ، ولوعرف ما استطاع مد يد المعونة ، فكيف بكم تستسيغون لأنفسكم أن تعبدوا ما هذه صفته ؟

وحيثما فوجئت حجة إبراهيم ولم يجدوا مقالا يقولونه وكأنما ألقمهم حجرا ، فعدلوا عن الحجاج إلى اللجاج ، وتقليد الآباء والأجداد ، وتلك هى حجة العاجز المغلوب على أمره ، الذى أظلم وجه الحق أمامه ، ولم يهتد لحجة ولا دليل .

فزاد في تقريرهم وتوبيخهم فقال :

(قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال : أفأرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهم عدواً إلى إله رب العالمين) أى إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير كما تدعون وتستطيع أن تضر وتنفع فلتخلص إلى بالمساءة فإني عدو لها لا أبالي بها ولا آبه بشأنها ، ولكن رب العالمين هو ولي في الدنيا والآخرة ولا يزال متفضلاً على فيهما .

ونحو هذا قول نوح عليه السلام « فَأَجِجُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » وقول هود :

« إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَسَكِينُوني جَمِيعًا ثُمَّ لَا تَنْظُرُونِ . إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

ثم وصف رب العالمين سبحانه بأوصاف استحق لأجلها أن يعبد :

(١) (الذي خلقتني فهو يهدين) أى هو الخالق الذى خلقتني وصورني فأحسن صورتي ، وهو الذى يهدينى إلى كل ما يهمنى من أمور المعاش والمعاد هداية تتجدد على جهة الدوام والاستمرار .

(٢) (والذى هو يطعمنى ويسقئ) أى وهو رازق بما يسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن ، وأنزل الماء فأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد ، وأنزل الماء عذبا زلالا يسقيه ما خلق من الأنعام والأناسى .

(٣) (وإذا مرضت فهو يشفين) أى وهو الذى ينعم على بالشفاء إذا حصل لى مرض ، وأضاف المرض إلى نفسه وهو حادث بقدرة ربه أدبا منه مع ربه كما قالت الجن « وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمَنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » ، والخلاصة — إني إذا مرضت لا يقدر على شفاى أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إلى ذلك .

(٤) (والذى يميتنى ثم يحيينى) أى وهو الذى يميتنى ويميتنى ولا يقدر على ذلك أحد إلا هو ، فهو الذى يبدئ ويعيد ، وقد يكون المراد بالإحياء البعث بعد الموت ، ويؤيده عطفه بتم لاتساع الوقت بين الإماتة والإحياء .

(٥) (والذى أطع أن يغفر لى خطيئتي يوم الدين) أى وهو الذى لا يقدر على غفران الذنوب فى الآخرة إلا هو كما قال : « وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ » وسمى إبراهيم ما صدر منه من عمل هو خلاف الأولى خطيئة ، استعظاما له .

وخلاصة مقاله — إن جميع النعم التى يتمتع بها المرء من النشأة الأولى إلى آخر الدهر هى من الله وحده ، ولا قدرة لأصنامكم على شىء منها .

وفي صحيح مسلم عن عائشة « قلت يا رسول الله : ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال لا ينفعه ، إنه لم يقل يوما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَأَغْفِرْ لِي لَأَنِّي إِنَّمَا كُنْتُ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) .

شرح المفردات

الحكم : هو العلم بالخير والعمل به ، والحق بالصلحين يراد به التوفيق للأعمال التي توصل إلى الانتظام في زمرة الكاملين المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها ، لسان صدق : أى ذكرًا جميلًا بين الناس بتوفيقى إلى الطريق الحسنة حتى يقتدى به الناس من بعدى ، وهذا هو الحياة الثانية كما قال : قد مات قوم وهم في الناس أحياء . من ورثة جنة النعيم : أى من الذين يتمتعون بالجنة وسعادتها فيكون ذلك غنيمة لهم كما يتمتع الناس بالميراث في الدنيا ، والخرى : الموان ، والقلب السليم : هو البعيد عن الكفر والنفاق وسائر الأخلاق الذميمة .

المعنى الجملى

بعد أن أثنى إبراهيم على ربه بما أثنى عليه - ذكر مسأله ودعائه بإياه بما ذكره كما هو دأب من يشتغل بالدعاء ، فإنه يجب عليه أن يتقدم بالثناء عليه تعالى وذكر عظمته وكبريائه ، ليستغرق في معرفة ربه ومحبه وبصير أقرب شهبًا بالملائكة الذين

يعبدون الله بالليل والنهار لا يفترون ، وبذا يستدير قلبه إلى ما هو أرفق به في دينه ودينياه ، وتحصل له قوة إلهية تجعله يهتدى إلى ما يريد ، ومن ثم جاء في الأثر حكاية عن الله تعالى : « من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

الإيضاح

دعا إبراهيم ربه أن يؤتیه من فضله أجمل الأخلاق وأكمل الآداب ، فطلب إليه أموراً هي :

(١) (رب هب لي حكماً) أى ائتنى معرفة بك وبصفاتك ، ومعرفة للحق لأعمل به .

(٢) (وألحقني بالصالحين) أى ووفقني للعمل في طاعتك ، لا تنظم في سلك المقر بين إليك ، المطيعين لك ، وقد أجاب الله دعاءه كما قال : « وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في دعائه : « اللهم أحيينا مسلمين ، وأممتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مبذولين » .

(٣) (واجعل لي لسان صدق في الآخرين) أى خلّد ذكرى الجليل في الدنيا بتوفيق لصالح العمل ، فأكون قدوة لمن بعدى إلى يوم القيامة ، وقد أجاب الله دعاءه كما قال : « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ . سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » .

ومن ثم لا نرى أمة إلا محبة لإبراهيم وتدعى أنها على ملته ، وقد جاء من ذريته كلمة الأنبياء وأولو العزم منهم .

وختم ذلك بمجدد دينه وداعية الناس إلى التوحيد وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وبعد أن طلب سعادة الدنيا طلب ثواب الآخرة فقال :

(٤) (واجعلني من ورثة جنة النعيم) أى واجعلني ممن يدخلون الجنة ويتمتعون بنعيمها كما يتمتع المالك بما يملكه ميراثا ويثول إليه أمره من شئون الدنيا .
وبعد أن طلب السعادة الدنيوية والأخروية لنفسه طلبها لأقرب الناس إليه وهو أبوه فقال :

(٥) (واغفر لأبي إنه كان من الضالين) أى واغفر له ذنوبه ، إنه كان ضالا عن طريق الهدى ، وهذه الدعوة وفاء بما وعده من قبل كما جاء في آية أخرى :
« وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ » .

ثم طلب من ربه عدم خزيه وهوانه يوم القيامة فقال :
(٦) (ولا تخزني يوم يبعثون) أى ولا تخزني بمعاتبتى على ما فرطت ، أو بنقص مرتبتى عن بعض الوارثين .

ثم بين حال هذا اليوم وما فيه من شديد الأهوال فقال :
(يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم) أى يوم لا يبق المرء من عذاب الله المال ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ، ولا البنون ولو افتدى بهم جميعا ، ولكن ينفعه أن يحىء خالصا من الذنوب وأدرانها ، وحب الدنيا وشهواتها ، وخص الابن بالذكر لأنه أولى القرابة بالدفع والنفع ، فإذا لم ينفع غيره من القرابة أولى .

قال النسفي : وما أحسن ما رتب عليه السلام من كلامه مع المشركين ، حيث سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لاستفهم ، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تقصر ولا تنفع ولا تسمع ، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة ، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله تعالى ، فعظم شأنه ، وعدّد نعمه من حين إنشائه إلى وقت وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات الخلقين ، وابتهل إليه ابتهاال الأدب ، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعذابه وما يفعل المشركون

يَوْمَئِذٍ مِنَ النَّدَمِ وَالْحَسْرَةِ عَلَى مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَتَمْنَى الْكَرَّةِ إِلَى الدُّنْيَا
لِيُؤْمِنُوا وَيُطِيعُوا أَهْلَهُ .

أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه عن ثوبان قال : لما نزلت : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ
الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ » الآية .

قال بعض أصحاب رسول الله لو علمنا أى المال خير اتخذناه ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « أفضله لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وزوجة صالحة تعين المؤمن
على إيمانه » .

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرُزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ
لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ
يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكَذَّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجَنُودُ إبْلِيسَ
أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩)
فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً
فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) .

شرح المفردات

أُزْلِفَت : أى قربت ، برزت : أى جعلت بارزة لهم بحيث يرون أهوالها ،
والغاوين : الضالين عن طريق الحق ، فكذبوا : أى ألقوا على وجوههم مرة بعد
أخرى من قولهم كبه على وجهه : أى ألقاه ، يختصمون : أى يخاصمون من معيهم من

الأصنام والشياطين ، نسويكم : أى نجعلكم مساوين له فى استحقاق العبادة ،
والصديق : هو الصادق فى وده ، والحميم : هو الذى يهيمه ما أهمك ، والكفرة : الرجعة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لا ينفع فى هذا اليوم مال ولا بنون ، وإنما ينفع البعد من
الكفر والنفاق - ذكر هنا من وصف هذا اليوم أموراً تبين شديد أهواله ،
وعظيم نكاله .

الإيضاح

ذكر ما يحدث فى هذا اليوم مما يبشر بشواب المتقين ونكال الكافرين ،
ثم تقر يعهم على ما اجترحوا من السيئات فقال :

(١) (وأزلفت الجنة للمتقين) أى إن الجنة تكون قريبة من موقف السعداء
ينظرون إليها ويفرحون بأنهم سيحشرون إليها كما جاء فى آية أخرى : « وَأَزْلَقَتْ
الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ » .

وفى هذا تعجيل لمسرتهم كفاء ما عملوا لها ، ورغبوا عن الدنيا وزخرفها .
(٢) (وبرزت الجحيم للغاوين) أى وتكون النار بارزة مكشوفة للأشقياء
بحيث تكون برأى منهم ، يسمعون زفراتها التى تبلغ منها القلوب الحناجر ويوقنون
بأنهم واقعوها لا يجدون عنها مصرفاً .

وفى هذا تعجيل للنعم والحسرة ، إذ نسوا فى دنياهم هذا اليوم كما جاء فى قوله :
« وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسِيتُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ، وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ
مِنْ نَاصِرِينَ » .

ثم ذكر أنه يسأل أهل النار تقرىعاً لهم .

(٣) (وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو يفتخرون ؟)

أى أين آلهتكم التى كنتم تعبدونها ؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم ، أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لأنفسهم ؟ لا - إنهم وآلهتهم وقود النار .

وإخلاصة - ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله من الأصنام والأوثان بمنغية عنكم اليوم شيئاً ، ولا هى بدافعة عن نفسها شيئاً ، فإنكم وإياها اليوم حسب جهنم أنتم لها واردون .

ثم ذكر ما لهم بعدئذ فقال :

(٤) (فـكـبـكـبـوا فيها هم والغاؤون . وجنود إبليس أجمعون) أى فأتى الآلهة والغاؤون الذين عبدوها فى النار ، والشياطين والداعون إلى عبادتها - على رؤوسهم أو ألقى بعضهم على بعض .

وتأخير الغاوين فى الككبكة عن آلهتهم ؛ ليشاهدوا سوء حالهم فينقطع رجائهم منهم قبل دخول الجحيم .

ثم ذكر ما يحدث من الخاصة والحاجة بين الآلهة والغاوين عبدتها والشياطين الذين دعواهم إلى تلك العبادة .

(٥) (قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا فى ضلال مبين . إذ نسويكم رب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون) أى قال الغاؤون وهم يخاضعون من معهم من الأصنام والشياطين : تالله إننا كنا فى ضلال واضح لالبس فيه حين سويتناكم رب العالمين فى استحقاق العبادة وعظمتناكم تعظيم المعبود الحق ، وما أضلنا إلا المجرمون من الرؤساء والكبراء كما جاء فى آية : « رَبَّنَا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا » .

وإخلاصة ذلك - إنهم حين رأوا صور تلك الآلهة اعترفوا بالخطأ العظيم الذى كان منهم وندموا على طاعتهم لأولئك الرؤساء والسادة الذين حملوهم على عبادتها وتعظيم شأنها .

ثم أكدوا ندمهم على ما فرط منهم وحسرتهم على ما صنعوا .

(فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم) أى فليس لنا اليوم شفيع يشفع لنا بما نحن فيه من ضيق أو ينقذنا من هلكة ، ولا صديق شقيق يعنيه أمرنا ويودنا ونوده . ونحو الآية ما جاء فى آية أخرى حكاية عنهم : « فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدِّدُ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » .

وقد أرادوا بهذا الإخبار إظهار اللهفة والحسرة على فقد الشفيع والصديق النافع . وقد نفوا أولا أن يكون لهم من ينفعهم فى تخليصهم من العذاب بشفاعته ، ثم ترقوا ونفوا أن يكون لهم من يهيم أمرهم ويشفق عليهم ويتوجع لهم وإن لم يخلصهم . والخلاصة — إن الأمر قد بلغ من الهول ما لا يستطيع أحد أن ينفع فيه أدنى نفع . ثم حكى الله عنهم تمذيبهم الرجوع إلى الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون ، والله يعلم إنهم لو ردوا لعادوا إلى ما نهوا عنه وإنهم لكاذبون فقال :

() (فلو أن لنا كرة فكنون من المؤمنين) أى ليت لنا رجعة إلى الدنيا فنعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ، حتى إذا متنا وبعثنا مرة أخرى لاینالنا من العذاب مثل ما نحن فيه .

(إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) أى إن فى محاجة إبراهيم لقومه وإقامة الحجة عليهم فى التوحيد — لآية واضحة جليلة على أنه تعالى لارب غيره ولا معبود سواه ، ومع كل هذا ما آمن به أكثرهم .

وفى هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم عما يجده من تكذيب قومه له مع ظهور الآيات وعظيم المعجزات

(وإن ربك هو العزيز الرحيم) أى وإن ربك الحسن إليهم بإرسالك لهدايتهم — هو القادر على الانتقام منهم ، الرحيم بهم إذ لم يهلكهم ، بل أخرج ذلك وأرسل إليهم الرسل ونصب لهم الشرائع ، ليؤمنوا بها هم أو ذريتهم .

قصص نوح عليه السلام

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا
تَتَّقُونَ؟ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨)
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠) قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ (١١١)
قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ
تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ
(١١٥) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ
رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ يَدَيَّ وَيَنْقِضْهُمَا فَيَكْفُفْهُمَا
وَيَنْقِضْهُمَا فَيَكْفُفْهُمَا وَيَنْقِضْهُمَا فَيَكْفُفْهُمَا (١١٨) فَانْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ
فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)

شرح المفردات

القوم : اسم لا واحد له من لفظه كرهط ونغريد كروبيوث ، أخوهم : أى أخوة
نسب كما يقال يا أبا العرب ويا أخا تميم ، يريدون يأمن هو واحد منهم ؛ قال الحماسي :

لايسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

الأرذلون : واحداهم أرذل ، والذالة : الخسة والدناءة ، وقد استرذلوهم ؛ الانضاع
نسبهم وقلة حظوظهم من الدنيا ، من المرجومين : أى من المقتولين رميا بالحجارة ،

فافتح : أى احكم من الفتاحة بمعنى الحكومة ، والفلك : يستعمل واحداً وجمعاً ،
المشخون : أى المملوء .

المعنى الجملى

بعد أن قص على رسوله صلى الله عليه وسلم قصص أبيه إبراهيم وما لقيه من
تكذيب قومه له مع ما أرشدهم إليه من أدلة التوحيد وما حجهم به من الآيات -
أردف هذا بقصص الأب الثانى وهو نوح عليه السلام ، وفيه ما لاقاه من قومه من
شديد التكذيب لدعوته وعكوفهم على عبادة الأصنام والأوثان وأنه مع طول الدعوة
لهم لم يزدحم ذلك إلا اعتوا واستكبارا ، وقد كان من عاقبة أمرهم ما كان لغيرهم ممن
كذبوا رسل ربهم بعد أن أملى لهم بطول الأمد : « وَأُمْلِي لَهُمْ إِن كَيِّدِي مَتِّينٌ »
فأغرقتهم الطوفان ولم ينج منهم إلا من حملته السفينة .

وهذا القصص مجمل تقدم تفصيله فى سورة الأعراف وهود ، وسيأتى بسطه أتم
البسط فى سورة نوح .

الإيضاح

(كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ؟) أى كذبت
قوم نوح رسل الله حين قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون الله فتتحذروا عقابه على
كفركم به وتكذيبكم رساله ؟ .

وجعل تكذيب نوح تكذيبا للرسل جميعا ، لأن تكذيبه يتضمن تكذيب غيره
منهم ، إذ طريقتهم لا تختلف ؛ فهى فى كل مكان وزمان الدعوة إلى التوحيد وأصول
الشرائع .

وقد حكى سبحانه عن نوح أنه خوفهم أولا بقوله : ألا تتقون ؟ لأن القوم
إنما قبلوا تلك الأديان تقليداً ، والمقلد إذا خوف خاف ، وما لم يستشعر بالخوف لا يشتغل
بالاستدلال والنظر .

وقد وصف نوح نفسه بأمرين :

(١) (إني لكم رسول أمين) أى إني رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثني به أبلغكم رسالته لا أزيد فيها ولا أنقص منها .

(فاتقوا الله وأطيعون) أى خافوا عقاب الله وأطيعوني فيما أمركم به من التوحيد؛ وقدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته ، لأن التقوى هى ملاك الأمر كله فى هذه الحياة ، وكرر الأمر بها لأنها العمدة فى جميع الأعمال ، فيجب على العامل ملاحظتها إذا أراد الإحسان وتجويد العمل .

(٢) (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) أى لا أطلب منكم جزاء على نصحى لكم ، بل أطلب ثواب ذلك من عند الله .

(فاتقوا الله وأطيعون) فقد وضع الأمر لكم وبأن نصحى وأمانتى فيما بعثني الله به وأتضمنى عليه ، وسبب التكرير ما علمته من قبل ، ونظير هذا ما يقول الوالد لولده : ألا تتقى الله فى عقوقى وقد ربيتك صغيرا ، ألا تتقى الله فى عقوقى وقد علمتك كبيرا .

وبعد أن أقام الدليل على صدق رسالته وعظيم نصحه وأمانته لهم أرادوا أن يتنصلوا من اتباع دعوته بحجة هى أوهى من بيت العنكبوت .

(قالوا أنؤمن لك واتبعتك الأرذلون؟) أى قالوا كيف نتبعك ونصدقك ونؤمن بك ونأتسى بهؤلاء الأرذل الذين اتبعوك؟ ومرادهم أن هذا لن يكون أبدا . وهذه شبهة لا ينبغي لمعاقل أن يركن إليها ، لأن نوحا عليه السلام بعث إلى الخلق كافة ، لا فارق بين غنى وفقير ، وصعلوك وأمير ، ولا بين ذوى البيوتات والحسب وذوى الوضاعة والخسة فى النسب ، فليس له إلا اعتبار الظواهر دون التفات إلى الباطن عن البواطن ، ومن ثم أجابهم :

(قال وما علمى بما كانوا يعملون؟) أى وأى شئ يعلمنى ما كان يعمل أتباعى؟ إنما لى منهم ظاهر أمرهم دون باطنه ، فمن أظهر الحسن ظننت به حسنا ، ومن أظهر

السوء ظننت به ذلك ، ولم أكلف العلم بأعمالهم ، وإنما كلفت أن أدعوهم إلى الإيمان والاعتبار به لا بالحِرَف والصناعات والفقر والغنى ، وهم كأنهم يقولون إن إيمان هؤلاء لم يكن عن نظر صحيح ، بل لتوقع مال ورفعة .

ثم أبان أن أمر جزائهم وحسابهم على ربهم لا عليه ، فلا يعنيه استقصاء أحوالهم فقال :

(إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون) أى ما حسابهم على ما تحويه سرائرهم إلا على ربهم المطلع عليها لو كنتم من ذوى الشعور والعقل .

ولما جعلوا من موانع إيمانهم اتباع هؤلاء الأراذل كانوا كأنهم طلبوا طردهم فقال :
(وما أنا بطارد المؤمنين) أى وما أنا بطارد من آمن بالله واتبعنى وصدق بما جئت به من عند الله .

ثم بين وظيفة الرسول فقال :

(إن أنا إلا نذير مبين) أى إنما بعثت منذرا ومخوفا بأس الله وشديد عذابه ، فمن أطاعنى كان منى وأنا منه ، شريفاً كان أو وضعياً ، جليلاً كان أو حقيراً .

ولما أجابهم بهذا الجواب وأيسوا بما راموا لجثوا إلى التهديد .

(قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) أى قال قوم نوح له : لئن لم تنته عما تدعو إليه من الطعن فى آلهتنا لترحمنك بالحجارة ولنقتلنك بها .

ولما طال مقامه بين ظهرانيهم ، يدعوه إلى الله ليلاً ونهاراً ، سرا وإعلاناً ، وكما كرر عليهم الدعوة صموا آذانهم وصمموا على تكذيبه وتمادوا فى عتوهم واستكبارهم - استغاث بربه وطلب منه أن يحكم بينه وبينهم وأن يهلكهم كما أهلك الكاذبين من قبلهم لرسالهم وينجيهم والمؤمنين به .

(قال رب إن قومى كاذبون . فافتح بينى وبينهم فتحة ونجنى ومن معى من المؤمنين) أى إن قومى كاذبون فى ما أتيتهم به من الحق من عندك ، فاحكم بينى وبينهم حكماً تهلك به المبطل وتلتقم منه وتنصر به الحق وأهله .

وجاء في آية أخرى « فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَصِرْ » .

وفي ذلك إيماء إلى طلب إنزال العذاب بهم كما يرشد إلى ذلك قوله : (ونجني ومن معي من المؤمنين) .
فأجاب الله دعاءه كما قال :

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ) أى أنجينا نوحا ومن اتبعه على الإيمان بالله وطاعة رسوله ، وأغرقنا من كفر به وخالف أمره .
وفي قوله - المشحون - إيماء إلى كثرتهم وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم ،
وقد روى أنهم كانوا ثمانين ، أربعين من الرجال وأربعين من النساء .

(إن في ذلك لآية) أى إن في إنجاء المؤمنين وإنزال سطوتنا وبأسنا بالكافرين
لعبرة وعظة لقومك المصدقين منهم والكاذبين ، على أن سنتنا إنجاء رسلنا وأتباعهم
إذا نزلت نقيمنا بالكاذبين من قومهم ، وكذلك هي سنتي فيك وفي قومك .

(وما كان أكثرهم مؤمنين) أى ومع كل ما حذر به نوح وأنذر لم يؤمن به
إلا القليل ، وفي هذا إيماء إلى أنه لو كان نصفهم مؤمنين لما عوجلوا بالعقاب .
(وإن ربك لهو العزيز الرحيم) أى وإن ربك لهو العزيز في انتقامه ممن
كفر به وخالف أمره ، الرحيم بالتائب منهم أن يعاقبه بعد توبته .

قصص هود عليه السلام

كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا
تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦)
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ
بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ (١٢٩)

وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا
الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ (١٣٤) إِلَى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ
عَلَيْنَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ
الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ (١٤٠) .

شرح المفردات

عاد : اسم أبي القبيلة الأكبر ، ويعبر عن القبيلة إذا كانت عظيمة باسم الأب
أو يبنى فلان أو آل فلان ، والريع (بالفتح والكسر) المكان المرتفع ، ويقال كم ريع
أرضك أي ارتفاعها ، آية : أي قصرا مشيدا عاليا ، تعبثون : أي تفعلون العبث ،
وما لافائدة فيه ، مصانع : أي قصورا مشيدة وحصونا منيعة ، ولعل هنا معناها التشبيه
أي كأنكم تخلصون ، والبطش : الأخذ بالعنف ، والجبار : المتسلط العاتى بلا رافة
ولا شفقة ، أمدكم : أي سخر لكم ، والوعظ : كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد ،
خلق الأولين : أي عادتهم التي كانوا بها يدينون ، ونحن بهم مقتدون : نموت ونحيا
بلا حساب ولا بعث .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص نوح وقومه وأن نوحا دعاهم وحذرهم عقاب الله وطال عليه
المطال ولم يزدحم ذلك إلا عتوا ونفورا ، فدعا ربه فأخذهم الطوفان وهم ظالمون - أردف
هذا بقصص هود عليه السلام مع قومه عاد ، وكانوا بعد قوم نوح كما قال في سورة

الأعراف « وَادَّكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً » .

يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل القريبة من حضرموت ببلاد اليمن وكانت لهم أرزاق دارة وأموال، وجنات وأنهار وزروع وثمار، وكانوا يعبدون الأصنام والأوثان، فبعث الله فيهم نبياً منهم يبشرهم وينذرهم ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ويحذرهم نقمته وعذابه، فكذبوه فأهلكهم كما أهلك المكذبين لرسله.

الإيضاح

(كذبت عاد المرسلين. إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) جاءت هذه المقالة على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب للتنبيه إلى أن بعثة الأنبياء أسسها الدعاء إلى معرفة الله وطاعته فيما يقرب المدعو إلى الثواب ويبعده من العقاب وأن الأنبياء مجمعون على ذلك وإن اختلفوا في تفصيل الأحكام تبعاً لاختلاف الأزمنة والعصور، وأن الأنبياء منزهون عن المطامع الدنيوية لا يأبهون بها، ولا يجمعونها قبله أنظارهم، ومحط رحالهم.

ولما فرغ من دعائهم إلى الإيمان أتبعه إنكار بعض ما هم عليه فقال :
(أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟) أى أتبنون فى كل مرتفع عال قصراً مشيداً للتفاخر والدلالة على القوى .

(وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) أى وتتخذون الحصون والقلاع كأنكم تخلدون فى الدنيا .

روى ابن أبى حاتم أن أبا الدرداء رضى الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون فى غوطة دمشق من البنيان ونصب الشجر، قام فى مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق فاجتمعوا إليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ألا تستحييئون ، ألا تستحييئون ، تجمععون

مالاتا تاكلون ، وتبنون مالا تسكنون ، وتأكلون مالا تدركون ، إنه قد كانت
قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أممهم
غرورا ، وأصبح جمعهم بورا ، وأصبحت مساكنهم قبورا ، ألا إن عادا ملكت
ما بين عدن وعمان ، خيلا وركابا ، فمن يشتري منى ميراث عاد بدرهمين ؟ .

(وإذا بطشتم بطشتم جبارين) أى إنكم قوم قساة غلاظ الأكباد ذوو جبروت
وعتو ، فإذا عاقبتم عاقبتم دون شفقة ولا رأفة .

وخلاصة ما قال — إن أفعالكم تدل على حب الدنيا وعلى الكبرياء والتسلط
على الناس بجبروت وعسف .

ولما نهاهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والجبروت ، دعاهم إلى العمل
للاخرة زجرا لهم عما هم فيه فقال :

(فاتقوا الله وأطيعون) أى فاحذروا عقاب الله وأتركوا هذه الأفعال الذميمة
وأطيعوني فيما أذعوكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن ذلك أجدى
لكم وأنفع .

ثم وصل العظة بما يوجب قبولها بالتنبيه إلى نعم الله التي غمرتهم ، وفواضله التي
عمتهم ، وذكرها أولا مجلة ثم فصلها ليكون ذلك أوقع في نفوسهم فيتحفظوها
ويعرفوا عظيم قدرها فقال :

(واتقوا الذى أمدكم بما تعملون . أمدكم بأنعام وبتين . وجنات وعيون) أى واتقوا
عقاب الله بطاعتكم إياه فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فابتعدوا عن اللعب واللهو وظلم الناس
والفساد فى الأرض ، واحذروا سخط من أعطاكم من عنده ما تعملون من الأنعام
والبهائم والبساتين والأنهار تتعتعون بها كما شئتم ، حتى صرتم مضرِب الأمثال فى الغنى
والثروة والزخرف والزينة ، فاجعلوا كفاء هذا عبادة من أنعم بها وتعظيمه وحده .

ثم بين السبب في أمرهم بالتقوى فقال :

(إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى إني أخاف عليكم إن أصررتم على كفركم ولم تشكروا هذه النعم ، عذاب يوم شديد المول تذهل فيه الرضعة عما أرضعت ، وترى الناس فيه سكارى حيارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد .

وبعد أن بلغ الغاية في إنذارهم وتخويفهم ، وترغيبهم وترهيبهم كانت خاتمة مطافه أن قابله بالاستخفاف وقلة الاكتراث والاستهانة بما سمعوا ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

(قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) أى هوّن عليك وأرح نفسك ، فكل هذا تعب ضائع ، وجهاد فى غير عدوّ ، وضرب فى حديد بارد ، فإننا لن نرجع عما نحن عليه ، وقد حكى سبحانه قولهم فى سورة هود : « وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » .

ثم ذكروا السبب فى أن الوعظ وعدمه سواء بقولهم :

(إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذيين) أى ما هذا الدين الذى نحن عليه إلا دين الأولين من الآباء والأجداد ، فنحن سالكون سبيلهم نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ، ولا بعث ولا معاد ، ولا ثواب ولا عقاب ، ولا جنة ولا نار .

(فكذبوه فأهلكناهم) أى فاستمروا فى تكذيبهم ومخالفة أمر رسوله ، فأهلكناهم بريح صرصر عاتية : (ريح عظيمة ذات برد شديد) كما جاء فى قوله : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ » وقوله : « وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى » .

(إن فى ذلك لآية) أى إن فى إهلاكنا عبادا يتكذبون رسولها - لعلهم لقوم المكذبين بك فيما أتيتهم به من عند ربك .

(وما كان أكثرهم مؤمنين) أى وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون
فى سابق علمنا .

(وإن ربك له العزيز الرحيم) أى وإن ربك له الشديد فى انتقامه من أعدائه ،
الرحيم بأوليائه المؤمنين إن تابوا وأصلحوا .

قصص صالح عليه السلام

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا
تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٤٤)
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥)
أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ
وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩)
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ
فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣)
مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ
هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَدَ
فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧)
فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨)
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) .

شرح المفردات

الطلع : أول ما يطلع من الثمر وبعده يسمى خللاً ثم بلعاً ثم بسراً ثم رطباً ثم تمراً ، والهضم : هو الضيغ الرخض اللين اللطيف ، والنحت : النجر والبرى ، والنحاتة : البراية ، والنحت : ما ينحت به ، والقره : النشاط وشدة الفرح . من المسحرين : أى الذين سحرُوا حتى ذهبت عقولهم ، الشرب : بالكسر (النصيب والحظ ، فعمقروها : أى رموها بسهم ثم قتلوها .

المعنى الجملى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص عاد وهود - قص قصص ثمود وصالح وقد كانوا عرباً مثلهم يسكنون مدينة الحجر التى بين وادى القرى والشام ، ومساكنهم معروفة تتردد عليها قريش فى رحلة الصيف وهم ذاهبون إلى بلاد الشام . دعاهم صالح إلى عبادة الله وحده وأن يطيعوه فيما بلغهم من رسالة ربهم ، فأبوا وكذبوا بعد أن أتى لهم بالآيات المصدقة لرسالته ، فأخذهم العذاب وزلزلت بهم الأرض ولم تبق منهم دياراً ولا نافع نار .

الإيضاح

(كذبت ثمود المرسلين . إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) أى كذبت ثمود أخاهم صالحاً حين قال لهم : ألا تتقون عقاب الله على معصيتكم بإياه ، وخلافكم أمره ، بطاعتكم أمر المفسدين فى الأرض ؟ إني لكم رسول من عند الله أرسلنى إليكم بتحذيركم عقوبته ، أمين على رسالته التى أرسلها معى إليكم ، فاتقوه وأطيعونى ، وما أسألكم على نصيحى إياكم وإنذاركم جزاء ولا ثواباً ، ما جزائى إلا على رب السموات والأرض وما بينهما .

ثم خاطب قومه واعظا لهم ومحذرا لهم فقال: نعم الله أن تحل بهم ومذكرا بأنعمه عليهم
فما آتاهم من الأرزاق الدارّة والجنات والعيون والزروع والثمار ، والأمن من
الخطرات فقال:

(١) (أتتركون فيما هاهنا آمنين. في جنات وعيون. وزروع ونخل طلها هضيم؟)
أى لا نظنوا أنكم تتركون في دياركم آمنين متمتعين بالجنات والعيون والزروع والثمار
اليانعة ، وأن لا دار للجزاء على العمل .
فعليكم أن تتذكروا أن ما أنتم فيه من نعيم وأمن من عدو لن يدوم وأنكم عائدون
إلى ربكم ، مجازون على أعمالكم خيرها وشرها .

(٢) (وتدحيتون من الجبال بيوتا فارحين . فاتقوا الله وأطيعون) أى وتتخذون
تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرا وبطرا من غير حاجة إلى سكنها مع الجد
والاهتمام في بنائها ، فاتقوا الله وأقبلوا على ما يعود عليكم نفعه في الدنيا والآخرة من
عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم ، وتسبيحه بكرة وأصيلا .

(٣) (ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) أى
ولا تطيعوا أمر رؤسائكم الذين تمادوا في معصية ربكم واجتروا على سخطه ، وهم الرهط
التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض ولا يصلحون وهم المذكورون في قوله :
« وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ » أى يستون
في أرض الله بمعاصيه ، ولا يصلحون أنفسهم بالعمل بطاعته .
وخلاصة هذا — لا تطيعوا رؤساءكم وكبراءكم الدعاة إلى الشرك والكفر
ومخالفة الحق .

ولما عجزوا عن الطعن في شيء مما دعاهم إليه عدلوا إلى التخجيل إلى عقول
الضعفاء والعامة :

(١) (قالوا إنما أنت من المسحّرين) أى أنت ممن سحر كثيرا حتى غلب
على عقله ، فلا يقبل لك قول ، ولا يسمع لك نصيح .

(٢) (ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين) أى إنك بشر مثلنا ، فكيف أوحى إليك دوننا ؟ كما حكى عنهم فى آية أخرى : « أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ . سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ؟ » .

ثم أجابهم إلى ما اقترحوا من الآيات الدالة على صدقه فيما جاء به من عند ربه .
(قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) أى قال صالح للثمود لما سألوه آية يعلمون بها صدقه : يا قوم هذه ناقة الله آية لكم ، ترد ماءكم يوما وتردونه أتم يوما فلها حظ من الماء يوما ولكم مثله يوما آخر .

قال قتادة : إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، ولا تشرب فى يومهم ماء .
روى أنهم اقترحوا عليه عُشَاء (حامل فى عشرة أشهر) تخرج من صخرة عينوها ، ثم تلد سقياً ، فبعد عليه الصلاة والسلام يتذكر ، فقال له جبريل عليه السلام : صل ركعتين وسل ربك ، ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وتنجت سقياً مثلها فى العظم . وإن أمثال هذه الروايات لا يجب علينا التصديق بها إلا إذا ثبتت بصحيح الأخبار .

(ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم) أى ولا تمسوها بسوء كضرب أو عقرب فيحل بكم عذاب لا قبل لكم به .
ثم حكى عنهم أنهم خالفوا أمر نبيهم فقال :

(فعقروها فأصبحوا ناديين . فأخذهم العذاب) أى فعقروا الناقة بعد أن مكثت بين أظهرهم حينما من الدهر ترد الماء وتأكل المرعى ، ثم ندموا على ما فعلوا حين علموا أن العذاب نازل بهم إذ أنظرهم ثلاثة أيام وفى كل يوم منها تظهر مقدمات نزوله فندموا حيث لا ينفع الندم ، فأخذهم العذاب وزلزأت أرضهم زلزلاً شديداً وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت منها قلوبهم ، ونزل بهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ، فأصبحوا فى ديارهم جائعين .

(إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم)

تقدم تفسيرها .

قصص لوط عليه السلام

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) .

شرح المفردات

أخوهم : أى فى البلد والسكنى ، لافى الدين ولا فى النسب ؛ لأنه ابن أخى إبراهيم وهما من أرض بابل ، والذكران : واحداهم ذكر ضد الأثنى من كل حيوان ، عادون أى متعدون الحدود التى رسمها العقل والشرع ، من المخرجين ، أى ممن نخرجهم من أرضنا وننفيهم من قريننا ، من القالين : أى المبغضين لعمالكهم ، والقلبى : البغض

الشديد كأنه يقلى الفؤاد ، يقال قابيته أقلية قلب وقلاء ، الغابرين : أى الباقين فعلى لم تخرج مع لوط ومن مضى معه .

المعنى الجملى

قص الله علينا فى هذه الآيات قصص لوط بن هاران بن آزر ابن أخى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، بعثه الله فى حياته إلى أمة عظيمة تسكن سدوم وما حولها من المدائن من بلاد العور بالقرب من بيت المقدس ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وطاعة رسوله ، ونهاهم عن معصيته وارتكاب ما كانوا ابتدعوا من الفواحش مما لم يسميهم إليه أحد من العالمين ، فكذبوه فأهلكهم الله ، فأرسل عليهم كبريتا ونارا من السماء فاحترقت قريتهم وأحدث بها زلزالا جعل عاليها سافلها كما جاء فى قوله : « فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجَّيِلٍ » .

الإيضاح

(كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) تقدم تفسير هذا فى سالف القصص .

وبعد أن نصحبهم بما سلف ذكره ونحجهم على قبيح ما ابتدعوه بقوله :

(أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم) أى أأنتم دون الناس جميعا تفعلون هذه الفعلة الشنعاء ، تغشون الذكور وتتركون النساء اللاتى جعلهن الله حلالا لكم تستمتعون بهن ويستمتعن بكم .

(بل أنتم قوم عادون) أى بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان وتجاوز الحدود التى تسيغها العقول وتبيحها الشرائع ، بارتكابكم هذا الجرم الذى لم يخطر ببال أحد من قبلكم .

ولما انضح لهم وجه الحق وانقطعت حججهم لجثوا إلى التهديد واستعمال القوة :
(قالوا لمن لم تنته يا لوط لتكون من المخرجين) أى لمن لم تنته عما أنت فيه
من إنكارك ما تنكره من أمرنا لننفيتك من قريبتنا ، وليكون شأننا معك شأن من
أخرجناه من قبلك بالعنف والعسف واحتباس الأموال : (كما هو شأن الظلمة إذا
أجلوا بعض من يبغيضونهم صادروا أملاكهم) .

حينئذ أجابهم بأن إبعاده لا يقف به عن الإنكار عليهم .

(قال إني أعلمكم من القالين) أى إني برىء مما تعملون ، مبعوض له ، لأحبه
ولا أرضاه ، ولا يضيرنى تهديدكم ولا وعيدكم ، وإني لأرغب فى الخلاص من
سوء جواركم .

وقال (من القالين) دون (قال) إيماء إلى أنه من القوم الذين لو سمعوا بما تفعلون
لأبغضوه ، كما يقال فلان من العلماء فإنه أشد مدحا من قولك فلان عالم ، إذ الأولى
تدل على أنه فى عداد زمرة العلماء المعروفين بمساهمته لهم فى العلم .

ثم أعرض عنهم وتوجه إلى الله أن ينجيه من أعمال السوء هو وأهله قال :
(رب نجنى وأهلى مما يعملون) أى رب نجنى من شؤم أعمالهم وأبعدنى من
عذابك الدنيوى والأخروى .

فأجاب الله دعاءه وأغاثه بعد أن استغاثه قال :

(فنجيناك وأهلك أجمعين . إلا عجوزا فى الغابرين) أى فنجيناك وأهلك جميعا بما حل
بأهل القرية من العذاب ، فأمرناه بالخروج منها قبل أن ينزل بهم منازل ، إلا عجوزا
قد بقيت ولم تخرج معه وهى امرأته كما جاء فى سورة هود : « إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ
مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ » وكانت عجوز سوء لم تتبع لوطا فى الدين ولم تخرج معه .

والخلاصة — فنجيناك وأهلك من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلا عند حلول
العذاب بهم إلا عجوزا قدر الله بقاءها لسوء أفعالها وقبح طويتها ، ولما لها من ضلع
فى استحسان أفعالهم .

(ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المُنذرين) أى ثم أهلكنا
المؤخرين عن لوط فأمطرنا عليهم حجارة من السماء . قال وهب بن منبه : أنزل الله
عليهم الكبريت والنار .

وبئس المطر هذا وما أشد وطأته ، وما أقسى وقعه ، فقد أحدث بأرضهم زلزالا
جعل عاليها سافلها .

(إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم)
سبق تفسير ذلك .

إيضاح لهذه القصة بما كتبه الباحثون

كتبت مجلة السياسة الأسبوعية فصلا قالت فيه : روت الكتب المنزلة أن الله
أهلك مدينتي سدوم وعمورة وثلاث مدن أخرى بجوارها بأن أمطر عليهم نارا
وكبريتا من السماء ، فلم ينج من سكانها سوى إبراهيم الخليل وأهل بيته ولوط وابنتيه
ولم يكن إبراهيم من أهل تلك المدن ، بل نزع إليها من الشمال طلبا للكلأ والمرعى
على حسب عادة القبائل الرّحل في ذلك الزمن .

وكان كثير من المؤرخين يرى أن هذه قصة خرافية ، وبعضهم يقول إنها قصة
واقعية كما تشهد بذلك آثار البلاد المجاورة للبحر الميت . (بحيرة لوط) .

وقد قام الدكتور (أولبرابط) بمباحث واسعة في وادي نهر الأردن وعلى
سواحل البحر الميت حيث يظن أن سدوم وعمورة والثلاثة المدن الأخرى كانت
فيها ، فاستبان له أن هذه القصة حقيقية بجميع تفاصيلها ، وعلم أن إبراهيم عليه الصلاة
والسلام انحدر حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد من بلاد ما بين النهرين إلى
فلسطين ومعه أهل بيته وابن أخيه لوط وأهله ومعهم أنعام كثيرة ، فحدث نزاع
وشجار بين الرعاة فرأى لوط حفظا للسلام أن يفترق عن إبراهيم واختار منطقة

وادی الأردن التي كانت فيها سدوم وعمورة وأقام بسدوم ، واختار إبراهيم المرتفعات التي في الشمال وضرب خيامه هنالك .

وكشف الدكتور آثارا تدل على صدق هذه القصة ، إذ وجد هناك آثار حصن قديم يعلو سطح البحر بنحو خمسمائة قدم وبجواره (المذبح) وهو حجارة منصوبة على شكل أعمدة يرجح أن الوثنيين في ذلك الزمن كانوا يقدمون عليها قربانهم ، ويرجح أن البحر الميت طغا على المدن الخمس التي كانت في منطقة الأردن اه .
وبعض علماء الجيولوجيا (طبقات الأرض) يؤكدون أن هذا البحر يغمر اليوم بلادا كانت أهلة بالسكان .

وفي التوراة إن إبراهيم كان ذات يوم جالسا بباب خيمته في حر النهار إذ أقبل إليه ثلاثة ملائكة فاستقبلهم بترحاب عظيم وصنع لهم وليمة واحتفى بهم ، وفي أثناء الطعام علم أنهم ذاهبون إلى سدوم ، وكان أهل هذه المدينة مشهورين بشروهم وانغماسهم في شهواتهم البهيمية ولا سيما الحرمة منها ، فلما وصلوا إلى سدوم ساروا توأ إلى منزل لوط ابن أخى إبراهيم ليبيتوا عنده ، وعلم أهل سدوم بقصتهم فأرادوا أن يرتكبوا بهم موبقا ، ولكن لوطا دافع عنهم وعرض أن يصحى بشرف ابنتيه لينقذهم ، فأبى أهل سدوم إلا أن يرتكبوا بهم الفحشاء ، وقد تمكن الضيوف من الفرار ، وأقموا لوطا وأهل بيته بالفرار ، وحين أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط (صومرا) فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من السماء وقلب تلك المدن وجميع سكانها ونظرت امرأة لوط إلى وراء فصارت عمود ملح : (اختنقت بالغازات الكثيرة التي التهمت إما بحدوث زلزلة أو بسقوط صاعقة من الجو) .

وفي التاريخ مايدل على حدوث انقلابات هيولوجية شبيهة بحادثة (سدوم وعمورية) فقد يثور بركان ويتدفق حممه على البلاد المحاورة فيغمرها ويهلك أهلها ، وقد تغور بلاد واسعة فيطمو عليها البحر وتزول هي وما فوقها من نبات وحيوان وإنسان ، وقد تنشق الأرض فتبتلع مدنا بأسرها .

والخلاصة — إن هذه المدن كانت قاعدة للملك جبارين وكانت ذات رياض
غذاء وغياض غنية بوفرة مائها وخيراتها وشمل أهلها الفساد ورتعوا في شهواتهم البهيمية
ولم يبق فيها برٌّ إلا لوط وأهله ، فانتقم الله منهم فأمر مطر عليهم نارا وكبريتا من
السماء فألهب البراكين النارية التي فيها فعجلت دمارهم وخسفت الأرض بهم وظهرت
البحيرة على ما نراه الآن .

قصص شعيب عليه السلام

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ
أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
(١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ
(١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا
بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا
فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَى
(١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا
وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ
كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنْ فِي
ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ (١٩١) .

شرح المفردات

الأيكة : غيضة كثيرة الشجر قرب مدين بعث الله إلى أهلها شعيبا كما بعثه إلى أهل مدين ولم يكن منهم نسباً ، من الخسرين : أى المطففين الآخذين من الناس أكثر مما لكم ، والقسطاس : الميزان ، والمستقيم : أى العدل ، ولا تعثوا : أى لا تفسدوا ، والجليلة : بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، وضمهما وتشديد اللام : الخلقة والطبيعة ، ويقال جبل فلان على كذا : أى خلق ، والمراد أنهم كانوا على خلقة عظيمة ، كسفا : واحداً كسفة كقطعة (وزنا ومعنى) والظلة : السحابة التى استظلوا بها .

المعنى الجملى

قص الله تعالى علينا فى هذه الآيات قصص شعيب مع قومه أهل مدين وقد بعثه إليهم فنصحهم بإبقاء السكيل والميزان وألا يعثوا فى الأرض فساداً فكذبوه ، فسلط الله عليهم الحر الشديد فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أحرّ من غيرها فيخرجون ، ثم أظلمتهم سحابة فاجتمعوا تحتها فأمرت عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً .

الإيضاح

(كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) سبق تفسير هذا .

وبعد أن نصحهم بتلك النصائح وعظهم بعظة أخرى ، فنهاهم عن نقيصة كانت شائعة بينهم وهى التطفيف فى السكيل والميزان فقال :

(أوفوا السكيل ولا تكونوا من الخسرين) أى إذا بعت للناس فكيلوا لهم السكيل كاملاً ولا تبخسوهم حقهم فبعضوه ناقصاً ، وإذا اشتريتم فخذوا كما لو كان البيع لكم .

وخلاصة ذلك — خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون .

(وزنوا بالقسطاس المستقيم) أى وزنوا بالميزان السوى العدل ، وقد جاء في سورة المطففين مثل هذا مع التحذير منه فقال : « وَيَلْ لِلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ . أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ » .

ثم عمم الذم عن البخس في كل حق فقال :

(ولا تبخسوا الناس أشياءهم) أى ولا تنقصوا الناس حقهم في كيل أو وزن أو غيرها كالمدروعات والمعدودات كأخذ بيض كبير وإعطاء بيض صغير ، وإعطاء رغيف صغير وأخذ رغيف كبير وهكذا .

ثم نهاهم عن جرم أعظم شأنا وأشد خطرا وهو الفساد في الأرض بجميع ضروب الفساد فقال :

(ولا تعثوا في الأرض مفسدين) أى ولا تكثرُوا فيها بالقتل والغارة وقطع الطريق والسلب والنهب ونحوها .

وبعد أن نهاهم عن ذلك خوفهم سطوة الجبار الذى خلقتهم وخلق من قبلهم ممن كانوا أشد منهم بطشا وعتوا فقال :

(واتقوا الذى خلقكم والجليلة الأولين) أى وخافوا بأس الله الذى خلقكم من العدم للإصلاح في الأرض وخلق من قبلكم ممن كانوا أشد منكم قوة وأكثر مالا كقوم هود الذين قالوا من أشد منا قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وقد تمخض هذا النصيح عن شيئين : القدح في رسالته أولا ، واستصغار الوعيد ثانيا :

(١) (قالوا إنما أنت من المسحرين) أى ما أنت إلا من سحر عقله مرة بعد أخرى فصار كلامه جزافا لا يعبر عن حقيقة ولا يصيب هدف الحق .

(وما أنت إلا بشر مثلنا) فما وجه تفضيلك علينا وإرسالك رسولا إلينا .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :
(وإن نظنك لمن الكاذبين) أى وإنا نعتقد أنك ممن يتعمد الكذب فيما
يقول ، ولم يرسلك الله نبياً إلينا .

(٢) (فأنسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين) أى إن كنت
صادقا فى دعواك الرسالة فأنزل علينا من السحاب قطعا يكون فيها العذاب لنا .

وهذا شبيه بما قالته قريش لنبيهم فيما حكى الله عنهم بقوله : « وَقَالُوا إِن نُّؤْمِنَ
لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا - إِلَى أَنْ قَالُوا - أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا
رَعِمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا » وقوله : « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن
كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبُتْ
بِعَذَابِ أَلِيمٍ » .

فأجابهم شعيب :

(قال ربى أعلم بما تعملون) فيجازيكم به ، فإن شاء عجل لكم العذاب ، وإن
شاء أخره إلى أجل معلوم ، وما على إلا البلاغ ، وأنا مأمور به ، فلم أنذركم من تلقاء
نفسى ، ولا أدعى القدرة على عذابكم .

(فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) أى وهكذا
دأبوا على التكذيب فجازاهم بحس ما طلبوا من إسقاط الكسف من السماء ، فجعل
عقوبتهم أن أصابهم حرّ عظيم أخذ بأنفاسهم لم ينفعهم فيه ظل ولا ماء ولا شراب ،
فاضطروا أن يخرجوا إلى البرية فأظلمت سحابة وجدوا لها بردا ونسيًا فاجتمعوا كلهم
تحتها ، فأمرتهم شواظا من نار فاحترقوا .

(إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) أى إن فى ذلك الإنجاء لكل
رسول ومن أطاعه ، والعذاب لكل من عصاه فى كل العصور - لدلالة واضحة على
صدق الرسل ، وما كان أكثر قومك بمؤمنين مع أنك قد أنبتهم بما لا يكون معه
شك لما يصحبه من الدليل والبرهان .

(وإن ربك هو العزيز الرحيم) أى وإنه هو العزيز فى انتقامه من الكافرين
الرحيم بعباده المؤمنين التائبين .

(تنبيه) جاءت هذه القصص السبع مختصرة هنا وفيها البرهان الساطع على
أن القرآن جاء من عالم الغيب ، فإن النتائج التى حصل عليها الأنبياء مع أقوامهم
هى مثل النتائج التى حصل عليها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن حين نزولها
ذاشوكة ولا ذا قوة ، وأن ما أصيب به من التكذيب والأذى وكانت عاقبته الفتح
والنصر المبين - نموذج لما حدث للأنبياء السالفين قبله .

وَإِنَّهُ لَتَنَزِّلُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣)
عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ
لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي
إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠)
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ
لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ
(٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ
(٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ
إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنْزَلَتْ
بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنْ
السَّمْعِ لَعَزُوفُونَ (٢١٢) .

شرح المفردات

الروح الأمين : هو جبريل عليه السلام ، ووصف بالأمين لأنه أمين وحيه تعالى وموصله إلى من شاء من عبادہ ، على قلبك : أى على روحك لأنه المدرك والمكف دون الجسد ، والزبر : الكتب ، واحدها زبرة كصحف وصفحة ، والآية : الدليل والبرهان ، والأعجمين : واحدہم أعجمي ، وهو من لا يقدر على التكلم بالعربية ، سلكناه : أى أدخلناه ، وأجرمين : مشركى قريش ، بختة : غداة ، منظرون : أى مؤخرون ، ذكرى : أى تذكرة وعبرة لغيرهم ، وما ينبغى لهم : أى ما يتيسر ولا يتسنى لهم ، وما يستطيعون : أى ما يقدرّون على ذلك ، لمعزولون : أى لمتمنعون بالشهب بعد أن كانوا ممكنين .

المعنى الجملى

بعد أن اختتم سبحانه هذا القصص وبين ما دار بين الأنبياء وأقوامهم من الحجاج والجدل ، وذكر أنه قد أهلك المكذبين وكان النصر في العاقبة لرسوله المتقين وأن هذه سنته في كل صراع بين الحق والباطل أن تذول دولة الباطل وينتصر الحق وإن طال الزمن : « بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ » . وفي ذلك سلوة لرسوله ، وعدة له بأنه مهما أودى من قومه ولقى منهم من الشدائد فإن الفاتح والفوز له : « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ أَسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا » . أردف هذا ببيان أن هذا القرآن الذى جاء بذلك القصص وحى من الله أنزله على عبده ورسوله جبريل عليه السلام بلسان عربى مبين ليفذر به العصاة ويبشّر به عبادہ المتقين ، وأن ذكره لى الكتب المتقدمة المأثورة عن الأنبياء الذين بشروا به حتى قام آخرهم خطيبا فى ملئه يبشّر به كما قال : « وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا

رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» وأن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكره في كتبهم كما قال : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » وكما أن الأعجمين إذا قرئ عليهم لم يدروا منه شيئاً ولم يؤمنوا به ، كذلك هؤلاء الجرمون من قريش لا يؤمنون به كفرا وعنادا حتى يأتيهم عذاب الله بغتة وهم لا يشعرون ، فيتمنون إذ ذاك النظرة ليطيعوا الله ويتبعوا أوامره ، وأتى لهم ذلك ؟ وهل يجديهم التمتي ساعتئذ ؟ « قَلَمُ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسًا » .

وقد جرت سنتنا ألا نهلك قوما إلا بعد أن نبعث إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

ثم رد على مشركي قريش الذين قالوا : إن لحمد صلى الله عليه وسلم تابعا من الجن يخبره كما تخبر الكهنة - بأن الشياطين من سجايهم الفساد وإضلال العباد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبأنهم ممنوعون عن سماع ما تتكلم به الملائكة في السماء ، لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا مدة إنزال القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استراق السمع كما قال : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ، وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا » .

الإيضاح

(وإنا لننزل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين) أى وإن هذا القرآن الذى تقدم ذكره فى قوله : « وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ » أنزله الله إليك وجاء به جبريل عليه السلام فتلاه عليك حتى وعيته بقلبك ، لتنذر به قومك بلسان عربى يبين ليكون قاطعا للعدر ، مقبلا للحجة ، دليلا إلى الحجة ، هاديا إلى الرشاد ، مصلحا لأحوال العباد .

وفي قوله : على قلبك إيماء إلى أن ذلك الميزل محفوظ وأن الرسول متمكن منه ، إلى أن القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التمييز ، والعقل والاختيار وسائر الأعضاء مشخّرة له ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ » وقوله صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » أخرجاه في الصحيحين ولأن القلب إذا غشى عليه وقطع سائر الأعضاء لم يحصل له شعور ، وإذا أفاق القلب شعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات .

وفي قوله : بلسان عربي مبين ، تقرير لمشركي قريش بأن الذي حملهم على التكذيب هو الاستكبار والعناد ، لا عدم الفهم ، لأنه نزل بلغتهم ، فلا عذر لهم في الإعراض عنه .

(وإياه أنى ذكر هذا القرآن والتنويه بشأنه لئى كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، وقد أخذ عليهم الميثاق بذلك وبه بشر عيسى بقوله : « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » .

(أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ؟) أى أوليس بكاف لهم شهادة على صدقه أن العلماء من بنى إسرائيل نصّوا على مواضع من التوراة والإنجيل فيها ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بصفته ونعته ، وقد كان مشركو قريش يذهبون إليهم ويتعرفون منهم هذا الخبر .

ذكر الثعلبى عن ابن عباس أن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : هذا أوانه وذكروا نعته .

وبعد أن أثبت بالدليلين السالفين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ذكر أن هؤلاء المشركين لا تنفعهم الدلائل ولا تجديهم البراهين فقال : (ولو نزلناه على بعض الأعجميين : فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) أى إنا أنزلناه

هذا القرآن على رجل عربي بلسان عربي مبين فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وأنه
منعجز لا يعارض بكلام مثله وبشرت به الكتب السالفة ومع هذا لم يؤمنوا به ،
بل نجحده وسنوه ثارة شعرا وأخرى كهانة ، فلو أنزلناه على بعض الأعجمين الذي
لا يحسن العربية فقرأه عليهم لسكفروا به أيضا ، ولتحلوا لجحودهم عذرا وقالوا له :
لا نفقه ما يقول كما قال في آية أخرى : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا
فُصِّلَتْ آيَاتُهُ » .

وفي هذا تسليية من الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم عن قومه لئلا يشتد حزنه
بإدبارهم عنه وإعراضهم عن الاستماع له .

والخلاصة — إننا لو أنزلناه على بعض الأعجمين : « لاعليك فإنك رجل منهم
ويقولون لك ما أنت إلا بشر مثلنا وهلا نزل به ملك » فقرأه ذلك الأعجم عليهم
ولم يكن لهم علة يدفعون بها أنه حق وأنه منزل من عندنا ما كانوا به مصدقين ،
فحُض من حرصك على إيمانهم به فإنهم لا يؤمنون به على كل حال : .
ثم وكّد هذا الإنكار أفضل تأكيد فقال : .

(كذلك سلكناه في قلوب الجرمين) أى كما أدخلنا التكذيب به بقراءة الأعجم

أدخلنا التكذيب به في قلوب الجرمين كفار قريش .

وفي ذلك إيماء إلى أن ذلك التكذيب صار متمكنا في قلوبهم أشد التمكن

وصار كالشيء الجلي الذي لا يمكن تغييره .

ثم زاد ذلك تأكيدا فقال :

(لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم) أى إنهم لا يتأثرون بالأمر الداعية

إلى الإيمان ، بل يستمرون على ما هم عليه حتى يعاينوا العذاب ، حين لا ينفع الظالمين

معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .

وإجمال ما تقدم — هكذا مكنا التكذيب وقرزناه في قلوبهم ، فكيفما فعل

بهم وعلى أي وجه دبر أمرهم فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه من جحوده

وإنكاره كما قال : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

(فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) أى فيأتى هؤلاء المكذبين بهذا القرآن العذاب الأليم وهم لا يشعرون قبل ذلك بمجيئه حتى ينفجأهم .

ثم بين أنهم يتمنون التأخير حينئذ ليتداركوا ما فات .

(فيقولوا هل نحن منظرون) أى فيقولوا على وجه الحسرة والأسف والتنى

للإمهال ليتداركوا ما فرطوا فيه : هل تؤخر إلى حين ؟ كما يستغيث المرء حين تعذر

الخلاص ، وهم يعلمون إذ ذاك أنه لا رجعة لهم ، لكنهم يذكرون ذلك استرواحا .

ولما أوعدهم النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا إلى متى توعدنا به ، ومتى

هذا كما قال :

(أفبعذابنا يستعجلون ؟) أى كيف يستعجلون عذابنا بنحو قولهم : « أَمْطِرْ

عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ » وقولهم : « أَتُنَبِّئُنَا بِمَا تَعِدُنَا » .

وقد تبين لهم كيف أخذنا للأمم الماضية والقرون الخالية والأقوام العاتية .

ثم أبان أن طول العمر لا يغنى عنهم شيئاً وأن العذاب آت لا محالة فقال :

(أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا

يمتعون) أى هل الأمر كما يمتقدون من طول عيشهم فى النعيم ، فأخبرنى إن متعناهم

فى الدنيا برغد العيش وصافى الحياة ، ثم جاءهم بعد تلك السنين المتطاولة ما كانوا

يوعدون من العذاب ، فهل ما كانوا فيه من النعيم يدفع عنهم شيئاً منه أو يخففه عنهم ؟ .

والخلاصة — إن طول التمتع ليس يدافع شيئاً من عذاب الله ، وكأنهم لم يمتعوا

بنعيم قط كما قال : « كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » وقال :

« يَوْمَ أَخَذَهُمْ لَوِيعَمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ »

وقال : « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » .

وعن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن البصري في الطواف بالكعبة وكان يتمي لقائه فقال : غظني فلم يزد أن تلا هذه الآية فقال ميمون : لقد وعظت فأبلغت .

ثم بين سبحانه أنه لا يهلك قرية إلا بعد الإنذار وإقامة الحجبة عليها فقال :
(وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين) أى
وما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد إرسالنا إليهم رسلاً يندرونهم بأسنا على كفرهم ،
تذكرة لهم وتنبيهاً إلى ما فيه النجاة من عذابنا ، وما كنا ظالمين في إهلاكهم ، لأنهم
جحدوا نعمتنا وعبدوا غيرنا بعد الإعذار إليهم ومتابعة الحجج ومواصلة الوعيد .

ونحو الآية قوله : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » وقوله : « وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا » .

ولما كان المشركون يقولون : إن محمداً كاهن وما ينزل عليه من نوع ما تنزل
به الشياطين أكذبهم الله بقوله :

(وما تنزل به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون)
أى وما نزلت الشياطين بالقرآن ليكون كهانة أو شعراً أو سحراً ، وما ينبغى لهم أن
ينزلوا به ، وما يستطيعون ذلك وإن عاجلوه بكل وسيلة ، وإنهم عن سماع الملائكة
لمحجوبون بالشهب .

والخلاصة — إن الشياطين لا تنزل به لوجوه ثلاثة :

(١) إنه ليس من مبتغاهم ، إذ من سجايهم الإضلال والإفساد ، والقرآن فيه
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو هدى ونور وبرهان متين ، فبينه وبين
مقاصد الشياطين منافاة عظيمة .

(٢) إنه لو انبغى لهم ما استطاعوا حمله وتأديته كما قال : « لَوْ أَنزَلْنَاهُذَا
الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » .

(٣) إنهم لو أنبغى واستطاعوا حمله وتأديبه لما وصلوا إلى ذلك ، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله .

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمَعْذِبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ
عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
(٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى
الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ
(٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)

المعنى الجملى

بعد أن بالغ سبحانه في تسليية رسوله صلى الله عليه وسلم وأقام الحجة على نبوته ،
ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه - أردف ذلك بأمره بعبادته وحده وإنذار
العشيرة الأقرب بين ومعاملة المؤمنين بالرفق ، ثم ختم هذه الأوامر بالتوكل عليه تعالى
وحده ، فإنه هو العليم بكل شئونه وأحواله .

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنه قال : لما أنزل الله :
« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم
نادى يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يحىء إليه ورجل يبعث رسوله ، فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى ،
أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تُغير عليكم صدقتموني ؟ قالوا
نعم ، قال : فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك سائر
اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟ » وأنزل الله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

الإيضاح

أمر سبحانه نبيه بأربعة أوامر ونواه :

(١) (فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذنين) أى أخلص العبادة لله وحده ولا تشرك به سواه ، فإن من أشرك به فقد عصاه ، ومن عصاه فقد استحق عقابه .

وفى هذا حث لرسوله على ازدياد الإخلاص وبيان أن الإشراك قبيح بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه فيكون الوعيد لغيره أزر ، وله أقبل .
وبعد أن بدأ بالرسول وتوعده إن دعا مع الله إلها آخر أمره بدعوة الأقرب فالأقرب ، لأنه إذا تشدد على نفسه أولا ، ثم ثنى بالأقرب فالأقرب كان قوله لسواهم أنفع ، وتأثيره أنجع فقال :

(٢) (وأنذر عشيرتك الأقربين) أى وخوف الأقربين من عشيرتك بأس الله وشديد عقابه لمن كفر به وأشرك به سواه .

وهذه النذارة الخاصة جزء من النذارة العامة التى بعث بها صلى الله عليه وسلم كما قال : « لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » وقال : « لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا » .

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا وعم وخصى ، فقال : « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعا ، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار فإنى

لا أملك لك ضرا ولا نفعا ، ألا أن لكم رحما وسأبئنها ببلاها - يريد أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئا . »

وفي الحديث والآية دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب ، وعلى جواز صلة المؤمن والكافر وإرشاده ونصيحته بدليل قوله : إن لكم رحما سأبئها ببلاها .

وروى مسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » .

وبعد أن أمره بالإنذار المشركين من قومه أمره بالرفق بالمؤمنين فقال :

(٣) (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أى ألن جانبك وترفق بمن اتبعك من المؤمنين ، فإن ذلك أجدى لك وأجلب لقلوبهم وأكسب لمحبتهم وأفضى إلى معونتك والإخلاص لك .

(فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون) أى فإن عصاك من أئذرتهم من العشيرة فلا ضير عليك وقد أدت ما أمرت به ، ولا عليك إثم مما يعملون وقل لهم إني برىء منكم ومن دعائكم مع الله إلهنا آخر ، وإنكم ستجزون بجرمكم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(٤) (وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين) أى وفوض جميع أمورك إلى القادر على دفع الضر عنك والانتقام من أعدائك الذين يريدون السوء بك ، الرحيم بك إذ نصرك عليهم برحمته وهو الذى يراك حين تقوم للصلاة بالناس ، ويرى تغيرك من حال كالجلوس إلى حال كالقيام فيما بين المصلين إذا كنت لهم إماما ، وفي الخبر « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . وعبر عن المصلين بالساجدين ، لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد . ثم أكد ما سلف بقوله :

(إنه هو السميع العليم) أى إنه هو السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم

وسكناتهم ، بسرهم ونجواهم كما قال : « وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ » .
وقضارى ذلك — إنه هو القادر على نفعم وضرركم ، فهو الذى يجب أن تشكروا عليه وهو الذى يكفكم ما أهمكم .

هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ
أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣) وَالشَّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ
الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ
مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ
كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ
يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

شرح المفردات

أنبئكم : أى أخبركم ، والآفك : كثير الإفك والكذب ، والأثيم : كثير الذنوب
والغجور ، يلقون السمع : أى يصفون أشد الإصغاء إلى الشياطين فيتلقون منهم
ما يتلقون عما أكثره الكذب ، والغاؤون : الضالون : المائلون عن السنن القويم ،
والوادي : الشعب ، يهيمون : أى يسبرون سيرة البهائم حائرين لا يهتدون إلى
شئ ، والمنقلب : المرجع .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه امتناع تنزل الشياطين بالقرآن وأثبت أنه تنزيل من رب
العالمين — أعقب هذا ببيان استحالة تنزلهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنها

لا تنزل إلا على كل كذاب فاجر ، ورسول الله صادق أمين ، ثم ذكر أن الكذابين يلقون السمع إلى الشياطين ، فيتلقون وحيمهم وهو تخيلات لا تطابق الحق والواقع . وبعدئذ ذكر أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر ، لأن الشعراء يهيمون في كل واحد من أودية القول من مدح وهو وتشبيب ومجون على حسب الهوى والمنفعة ، فأقوالهم لا تترجم عن حق ، وليس بينها وبين الصدق نسب ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا الصدق ، فأتى له أن يكون شاعرا ؟

الإيضاح

(هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) أى هل أخبركم خبرا جليا نافعا في الدين عظيم الجدوى في الدنيا ، تعلمون به الفارق بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن - على من تنزل الشياطين حين تسترق السمع ؟

وهذا رد على من زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس بحق ، وأنه شيء أتاه به ربي من الجن ، فنهى الله رسوله عن قولهم وافترائهم ، ونهى إلى أن ما جاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم ، وأنه ليس من قبل الشياطين .

ثم أشار إلى الجواب عن هذا السؤال بوجهين :

(١) (تنزل على كل أفاك أثيم) أى هي تنزل على كل كذاب فاجر من الكهنة

بحوشق بن رهم ، وسطيح بن ربيعة .

(٢) (يلقون السمع وأكثروا كاذبون) أى يلقى الأفاك كون سمعهم إلى الشياطين

ويصنعون إليهم أشد إصغاء ، فيتلقون منهم ما يتلقون ، وهؤلاء قلما يصدقون

في أقوالهم ، بل هم في أكثرها كاذبون .

والخلاصة - إن هناك فارقا بين محمد صلى الله عليه وسلم والكهنة ، فمحمّد

لا يكذب فيما يخبر عن ربه ، وما عرف عنه إلا الصدق ، والكهنة كذابون فيما يقولون ، وقلماء عرف عنهم الصدق في أخبارهم .

وبعد أن ذكر الفارق بين محمد صلى الله عليه وسلم والكهنة - أردف ذلك بذكر الفارق بينه وبين الشعراء فقال :

(والشعراء يتبعهم الغاؤون) أى إن الشعراء يتبعهم الضالون الحائدون عن السنن القويم المائلون إلى الفساد الذى يجر إلى الهلاك ، وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك ، بل هم الساجدون الباكون الزاهدون .

وقد سبق أن قلنا : إن من الشعر ما يحوز إنشاده ، ومنه ما يكره أو يحرم ، روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال : « ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال : هل معك من شعرامية بن أبى الصلت شئ ؟ قلت نعم ، قال هيه فأنشدته بيتا ، فقال هيه . ثم أنشدته بيتا ، فقال هيه ، حتى أنشدته مائة بيت . وفي هذا دليل على العناية بحفظ الأشعار إذا تضمنت الحكم والمعاني المستحسنة شرعا وطبعيا ، وإنما استكثر النبي صلى الله عليه وسلم من شعرامية : لأنه كان حكيما ألا ترى قوله عليه السلام « كاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم » .

ثم بين تلك الغواية بأمرين :

(١) (ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون) أى ألم تعلم أن الشعراء يسلكون الطرق المختلفة من الكلام ، فقد يمدحون الشئ حينما بعد أن ذموه ، أو يعظمونه بعد أن احتقروه ، والعكس بالعكس ، وذلك دليل على أنهم لا يقصدون إظهار الحق ولا تحرى الصدق ، لكن محمدا جبلته الصدق ولا يقول إلا الحق ، وقد بقى على طريق واحد ، وهو الدعوة إلى الله والترغيب فى الآخرة والإعراض عن الدنيا .

(٢) (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فهم يرغبون فى الجود ويرغبون عنه ، وينفرون عن البخل ويضرون عليه ، ويقدحون فى الأغراض لأدنى الأسباب ،

ولا يأتون إلا الفواحش ، ومحمد صلى الله عليه وسلم على خلاف ذلك . فقد بدأ بنفسه إذ قال له ربه : (فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذنين) ثم بالأقرب فالأقرب فقال : (وأنذر عشيرتك الأقربين) فليست حاله حال الشعراء .

ولما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة استثنى منهم من اتصف بأمور أربعة : الإيمان والعمل الصالح وكثرة قول الشعر في توحيد الله والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق وألا يهجو أحدا إلا انتصارا ممن يهجوهم اتباعا لقوله : « لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ » كما كان يفعل عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير حين كانوا يهجون المشركين منافخة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن مالك : « اجهم ، فوالذى نفسى بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل » وكان يقول لحسان بن ثابت : « قل وروح القدس معك » ، وفي رواية « اجهم وجبريل معك » . وإلى هذا أشار بقوله :

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا) . وروى ابن جرير عن محمد بن إسحق « أنه لما نزلت هذه الآية جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبيكون ، قالوا قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبي صلى الله عليه وسلم : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال أنتم (وذكروا الله كثيرا) قال : أنتم (وانتصروا من بعد ما ظلموا) قال : أنتم أى بالرد على المشركين ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : انتصروا ولا تقولوا إلا حقا ولا تذكروا الآباء والأمهات » ، فقال حسان لأبي سفيان :

هجوت محمدا فأجبت عنه . وعند الله في ذلك الجزاء .
 وإن أبي ووالده وعرضي . لعرض محمد بمتكم وقاء .
 أنشتمه ولست له بكفء . فشر كما خيركم الفداء .
 إنساني صارم لا عيب فيه . وبحري لا تكدره الدلاء .

وقال كعب يا رسول الله . إن الله قد أنزل في الشعر ما قد علمت ، فكيف
 ترى فيه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن المؤمن يجاهد بنفسه وسيفه ولسانه ،
 والذي نفسي بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل » ، وقال كعب :
 جاءت سخينة كي تغالب ربها . وليقلبن مغالب الغلاب .
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد مدحك الله يا كعب في قولك هذا :
 وبعد أن ذكر سبحانه من الدلائل العقلية وأخبار الأنبياء المتقدمين ما يزيل
 الحزن عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بين الدلائل على صدق نبوته ،
 ثم أرشد إلى الفارق بينه وبين الكهنة وبينه وبين الشعراء - ختم السورة بالتهديد
 العظيم والوعيد الشديد للكافرين فقال :

(وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) أي وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم
 وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات كفرا بها وعنادا - أي مرجع يرجعون إلى الله بعد
 الموت ، وأي معاد يعودون إليه ؟ إنهم ليصيرن إلى نار لا يطفأ سعيها ،
 ولا يسكن لهيها .

اللهم أبعдна عن تلك النار وأدخلنا جنتك برحمتك يا أرحم الراحمين .

خلاصة ما خوته هذه السورة الكريمة

(١) مقدمة في تسمية الرسول صلى الله عليه وسلم عن إعراض قومه عن الدين ، وبيان أنهم ليسوا ببديع في الأمم ، وأنه صلى الله عليه وسلم ليس بأول الرسل الذين كذبوا ، وأن الله قادر على إنزال القوارع التي تلجئهم إلى الإيمان ، ولكن جرت سنته أن يجعل الإيمان في القلوب اختياريا لا اضطراريا .

(٢) الاستدلال بخلق النبات وأطواره المختلفة وأشكاله المنوعة - على وجود الإله ووحدانيته .

(٣) قصص الأنبياء مع أممهم لما فيه من العبرة لأولئك المكذبين .

(٤) إثبات أن القرآن وحى من رب العالمين لا كلام تنزل به الشياطين .

(٥) بيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس بكاهن ولا شاعر .

(٦) التهديد والوعيد لمن يعبد مع الله سواه من الأصنام والأوثان ، ويكذب

بالرسول والنور الذي أنزل معه .

سورة النمل

مكية نزلت بعد الشعراء ، وآياتها ثلاث وتسعون .

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إنها كالتممة لها إذ جاء فيها زيادة على ما تقدم من قصص الأنبياء قصص داود وسليمن .

(٢) إن فيها تفصيلا وبسطا لبعض القصص السابقة كقصص لوط وموسى عليهما السلام .

(٣) إن كليهما قد اشتمل على نعم القرآن وأنه منزل من عند الله .

(٤) تسليمة رسوله صلى الله عليه وسلم عما يلقاه من أذى قومه وعنهم وإصرارهم على الكفر به والإعراض عنه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُمْ يُوقِنُونَ (٣) .

الإيضاح

(طَسَ) تقدم القول في المراد من قواطع السور ، وأن الأصح أنها حروف مقطعة جاءت للتنبيه نحو ألا ويا التي للدعاء ، وينطق بأسمائها فيقال : (طا - سين) .

(تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ) أى إن هذه الآيات التي أنزلتها إليك أيها الرسول لآيات القرآن ، وآيات كتاب بين لمن تدبره وفسكر فيه أنه من عند الله

أنزله إليك ، لم تقوله أنت ولا أحد من خلقه ، إذ لا يستطيع ذلك مخلوق ولو تظاهر معه الجن والإنس .

والمراد بالكتاب المبين : القرآن ، وعطفه عليه كمعطف إحدى الصفتين على الأخرى كما يقال هذا فعل السخى والحواد الكريم .

(هدى وبشرى المؤمنين) أى هى تزيد المؤمنين هدى على هدايتهم كما قال : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَأَدْتَهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يُسْتَبْشِرُونَ » وهى تبشرهم برحمة من الله بوضوآن وجنات لهم فيها نعيم مقيم .

ولما كان وصف الإيمان خفيا ذكر ما يلزمه من الأمور الظاهرة فقال :

(الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) أى إن المؤمنين حق الإيمان هم الذين يعملون الصالحات فيقيمون الصلاة المفروضة على أكمل وجوهها ويؤدون الزكاة التى تطهر أموالهم وأنفسهم من الأرجاس ، ويوقنون بالمعاد إلى ربهم وأن هناك يوما يحاسبون فيه على أعمالهم خيرها وشرها ، فيذلون أنفسهم فى طاعته ، رجاء ثوابه وخوف عقابه .

وليسوا كأولئك المكذبين به الذين لا يبالون . أحسنوا أم أساءوا ، أطاعوا أم عصوا ، لأنهم إن أحسنوا لا يرجون ثوابا وإن أساءوا لم يخافوا عقابا .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤)
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسَرُونَ (٥) .

شرح المفردات

يعمّهون : أى يتحيزون ويترددون فى أودية الضلال ، الأخسررون : أى أشد الناس خسرانا لحرماتهم الثواب واستمرارهم فى العذاب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن المؤمنين يزيدهم القرآن هدى وبشرى ، إذ هم به يستمسكون ويؤدون ما شرع من الأحكام على أتم الوجوه - أردف هذا ببيان أن من لا يؤمن بالآخرة يركب رأسه ، ويتمادى في غيه ، ويعرض عن القرآن أشد الإعراض ، ومن ثم تراه حائرا مترددا في ضلاله ، فهو في عذاب شديد في دنياه لتبليبه ، وقلقه واضطراب نفسه ، وفي الآخرة له أشد الخسران لما يلحقه من النكال والوبال والخمران من الثواب والنعم الذى يتمتع به المؤمنون .

الإيضاح

(إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم فهم يعمهون) أى إن الذين لا يصدقون بالآخرة وقيام الساعة و بالمعاد إلى الله بعد الموت ، وبالثواب والعقاب - حببنا إليهم قبيح أعمالهم ومددنا لهم في غيهم ، فهم في ضلالهم حيارى تأمبون يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، لا يفكرون في عقبي أمرهم ولا ينظرون إلى ما يشول إليه سلوكهم . قال الزجاج : أى جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زيننا لهم ما هم فيه بأن جعلناهم مشتغى بالطبع ، محبوا إلى النفس .

(أولئك الذين لهم سوء العذاب) فى الدنيا يقتلهم وأسرهم حين قتال المؤمنين كما حدث يوم بدر .

(وهم فى الآخرة هم الآخسرون) أى وهم فى الآخرة أعظم خسرانا مما هم فيه فى الدنيا ، لأن عذابهم فيها مستمر لا ينقطع ، وعذابهم فى الدنيا ليس بدائم بل هو زائل لا بقاء له .

قصص موسى عليه السلام

وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَى
لَأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَ تَبِعُكُمْ مِنْهَا بِخَبِيرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ
لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ
حَوْلَهَا ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (٩) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ
يُعَقِّبْ ، يَا مُوسَى لَا تَخَفْ ، إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلَّا مَنْ
ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ
فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ،
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا
سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

شرح المفردات

اللقاء : أى التلقين وتعطى ، آنست : أى أبصرت إبصاراً حصل لى به أنس ،
بخير : أى عن الطريق وحاله ، بشهاب : أى بشعلة نار ، قبس : أى قطعة من النار
مقبوسة وماخوذة من أصلها ، تصطلون : أى تستدفئون بها . قال الشاعر :
النار فأكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه شاتياً فليصطل

جان : أى حية صغيرة سريعة الحركة ، ولّى مدبراً : أى التفت هارباً ، ولم يعقب :
أى لم يرجع على عقبه ولم يلتفت إلى ماوراءه من قولهم : عقب المقاتل إذا كره بعد الفرار

من غير سوء : أى من غير برص ولا نحوه من الآفات ، آيات : أى معجزات دالة على صدقت ، مبصرة : أى بيّنة واضحة ، جحدوا بها : أى كذبوا ، واستيقنتها أنفسهم أى علمت علما يقينيا أنها من عند الله ، وعلاوا : أى ترفعا واستكبارا .

المعنى الجملى

بعد أن وصف عز اسمه القرآن بأنه هدى وبشرى للمؤمنين ، وأن من أعرض عنه كان له الخسران المبين - أردفه بذكر حال المنزل عليه وهو الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطبا له .

الإيضاح

(وإنا لك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) أى وإنا لك أيها الرسول لتتحفظ القرآن وتعلمه من عند حكيم بتدبير خلقه ، عليم بأخبارهم وما فيه الخير لهم ، نخبه هو الصديق ، وحكمه هو العدل كما قال : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا » . ثم خاطب صلى الله عليه وسلم وأمر بتلاوة بعض ما تلقاه من لدنه عز اسمه تقريرا لما قبله وتحقيقا له بقوله :

(إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون) أى واذكر أيها الرسول لقومك حين قول موسى لأهله وقد سار بهم فأضل الطريق في ليل دامس وظلام حالك ، فرأى نارا تأجج وتضطرب ، إني أبصرت نارا سأتيكم منها إما بخبر عن الطريق أو آتيكم بشعلة من النار تستدفئون بها ، وكان كما قال : فإنه رجع منها بخبر عظيم واقتبس نورا جليلا .

وقد كان هذا حين مسيره من مدين إلى مصر ولم يكن معه سوى امرأته ، وكانا يسيران ليلا فاشتبه عليهما الطريق والبرد شديد :

وفي مثل هذه الحالة يستبشر الناس بمشاهدة النار من بُعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة وأمن الطريق ومن الانتفاع بها للاصطلاء ، ومن ثم قال لها هذه المقالة .
 (فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين)
 أي فلما وصل إلى النار نودي بأن بورك من في مكان النار ومن حول مكانها ، ومكانها هي البقعة المباركة المذكورة في قوله : « نُوْدِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ » ومن حولها من في ذلك الوادي وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات ومهبط الخيرات ، لتكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتا .
 وقوله سبحانه الله تنزيهه لنفسه عما لا يليق به في ذاته وحكمته وإيدان بأن مدبر ذلك الأمر هو رب العالمين .

أخرج عبد بن حميد وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي عن أبي موسى الأشعري قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، ويرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات (أنوار) وجهه كل شيء أدركه بصره » ثم قرأ أبو عبيدة « أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » .

وفي التوراة جاء الله من سيناء ، وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبل فاران فجيئته من سيناء بعثه موسى منها ، وإشرافه من ساعير بعثه المسيح منها ، واستعلاؤه من فاران بعثه محمد صلى الله عليه وسلم (وفاران مكة) .

ولما تشوقت النفس إلى تحقق ما يراد بالتصريح قال تعالى تمهيدا لما أراد إظهاره على يد موسى من المعجزات الباهرة .

(يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) أي يا موسى إن الذي يخاطبك ويناجيك هو ربك الذي عز كل شيء وقهره ، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله .

ثم أرى موسى آية تدل على قدرته ليعلم ذلك، علم شهوداً فقال :
 (وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تُهَنِّئُ كَأَنَّهُا جَانٌّ وَلِي مُدِيرًا وَلَمْ يَعْقِبْ) أَيْ وَأَلْقِ عَصَاكَ ،
 فَلَمَّا أَلْقَاهَا انْقَلَبَتْ حَيَّةً سَرِيعَةً الْحَرَكَةُ ، فَلَمَّا رَآهَا كَذَلِكَ وَلِي هَارِبًا يَخُوفًا مِنْهَا
 وَلَمْ يَلْتَفِتْ وَرَاءَهُ مِنْ شِدَّةِ فَرَقِهِ .

وحينئذٍ تَأَقَّبَ النَّفْسَ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا قَبِيلَ إِذْ ذَاكَ فَقَالَ :

(يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) أَيْ لَا تَخَفْ مِمَّا تَرَى فَإِنِّي لَا يَخَافُ
 عِنْدِي رُسُلِي وَأَنْبِيَائِي الَّذِينَ اخْتَصَمَهُمْ وَأَصْطَفَيْتَهُم بِالنَّبُوَّةِ .

(إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) أَيْ لَكِنْ مَنْ ظَلَمَ مِنْ
 سَائِرِ الْعِبَادِ ، فَإِنَّهُ يَخَافُ إِلَّا إِذَا تَابَ فَبَدَّلَ بِتُوبَتِهِ حَسَنًا بَعْدَ سَوْءٍ فَإِنِّي أَغْفِرُ لَهُ
 وَأُخَوِّذُ ذُنُوبَهُ وَجَمِيعَ آثَارِهَا كَمَا فَعَلَ السَّحَرَةُ الَّذِينَ آمَنُوا بِمُوسَى ، وَفِي هَذَا بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ
 لِسَائِرِ الْبَشَرِ ، فَإِنْ مِنْ عَمَلٍ ذَنْبًا ثُمَّ أَقْلَعَ عَنْهُ وَتَابَ وَأَتَابَ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ :
 « وَإِلَى الْغَفَارِ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » وَقَالَ : « وَمَنْ يَعْمَلْ
 سَوْءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا » .

ثم أراه جلت قدرته آية أخرى ذكرها بقوله :

(وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ) أَيْ أَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِ
 « مَدْخُلِ الرَّأْسِ مِنْهُ الْمَفْتُوحُ إِلَى الصَّدْرِ » فَيُصْلِكُ بَيْضًا بَيَاضًا عَظِيمًا ، وَلَهَا
 شُعَاعٌ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ بِلَا آفَةٍ بِهَا مِنْ بَرَصٍ أَوْ غَيْرِهِ .

وَالْآيَةُ الْأُولَى كَانَتْ بِتَغْيِيرِ مَا فِي يَدِهِ وَقَلْبِهَا مِنْ جَمَادٍ إِلَى حَيَوَانٍ ، وَالثَّانِيَّةُ بِتَغْيِيرِ
 يَدِهِ نَفْسِهَا وَقَلْبِهَا وَأَوْصَافِهَا إِلَى أَوْصَافٍ أُخْرَى نَوْرَانِيَّةٍ .

(فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ) أَيْ هَاتَانِ آيَتَانِ مِنْ تِسْعِ آيَاتِ أُوَيْدِكَ
 بِهِنِ وَأَجْعَلُهُنَّ بَرَهَانًا لَكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ كَمَا قَالَ : « وَاقْضَ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ
 آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ » :

ثم علل إرساله إليهم بِالْخَوَارِقِ بِقَوْلِهِ :

(إنهم كانوا قوما فاسقين) أى لأنهم قوم خرجوا عما تقتضيه الفطرة . ويوجبها العقل بإدعاء فرعون الألوهية وتصديقهم له فى ذلك .

وبعدئذ ذكر ما حدث لهم حين أتاهم بالبراهين من ربه فقال :

(فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين) أى فلما جاءت فرعون وقومه أدلتنا الواضحة المنيرة الدالة على صدق الداعى — أن يكروها وقالوا هذا سحر بين لأصح يدل على مهارة فاعله وحذق صانعه .

ثم بين أن هذا التكذيب إنما كان باللسان فحسب لا بالقلب فقال :

(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) أى وكذبوا بها بألسنتهم وأنكروا دلائلها على صدقه وأنه رسول من ربه ، لكنهم علموا فى قرارة نفوسهم أنها حق من عنده ، فخالفوا ألسنتهم قلوبهم ، ظلما للآيات إذ حطوها عن مرتبتها العالية وسموها سحرا ، ترفعا عن الإيمان بها كما قال فى آية أخرى : « فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ » .

والخلاصة — إنهم تكبروا عن أن يؤمنوا بها وهم يعلمون أنها من عند الله .

(فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أى فانظر أيها الرسول ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الإغراق على الوجه الذى فيه العبرة للظالمين ، ومن إخراجهم من الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم .

وفى هذا تحذير للمكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم الجاحدين لما جاء به من عند ربه ، أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك ، لعلمهم يقلعون عن عنادهم واستكبارهم حتى لا تنزل بهم القوارع ويأخذهم العذاب من حيث لا يشعرون .

قصص داود وسليمان عليهما السلام

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى

كثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) . وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ، وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ

عَلَّمَنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْثَقَنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ
 (١٦) وَحَشَرَ سُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧)
 حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا
 مَسَاكِنَكُمْ ، لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨)
 فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
 أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي
 عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) .

شرح المفردات

ورث سليمان داود : أى قام مقامه فى النبوة والملك ، منطق الطير : أى فهم
 ما يريد به كل طائر إذا صوّت ، حشر : أى جمع ، يوزعون : أى يحبس أولهم ليلحق
 آخرهم فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد ، وادى النمل : واد بأرض الشام ،
 لا يحطمنكم : أى لا يكسرنكم ويهشمكم ، أوزعنى : أى يسرلى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصص موسى صلى الله عليه وسلم تقريراً لما قبله ببيان أنه تلقاه
 من لدن حكيم عليم - أردفه بقصص داود وسليمان وذكر أنه آتى كلا منهما طائفة
 من علوم الدين والدنيا ، فعلم داود صنعة الدروع ولبوس الحرب ، وعلم سليمان منطق
 الطير ، ثم بين أن سليمان طالب من ربه أن يوفقه إلى شكر نعمه عليه وعلى والديه ،
 وأن يمكنه من العمل الصالح وأن يدخله جنات النعيم .

الإيضاح

(ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقال الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) أى ولقد أعطينا داود وسليمان ابنه عليهما السلام طائفة عظيمة من العلم ، فعلمنا داود صنعة الدروع والبنوس الحرب ، وعلمنا سليمان منطق الطير والدواب وتسبيح الجبال ونحو ذلك مما لم نؤته أحدا من قبلهما ، فشكرا الله على ما أولاهما من منته ، وقال الحمد لله الذى فضلنا بما آتانا من النبوة والكتاب وتسخير الشياطين والجن ، على كثير من المؤمنين من عباده الذين لم يؤتهم مثل ما آتانا .

وفى الآية إيماء إلى فضل العلم وشرف أهله من حيث شكرا عليه وجعله أساس الفضل ولم يعتبر شيئا دونه مما أوتياه من الملك العظيم : « يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » وفيها تحريض للعلماء على أن يحمدا الله على ما آتاهم من فضله ، وأن يتواضعوا ويعتقدوا أن فى عباد الله من يفضلهم فيه .

(وورث سليمان داود) أى قام مقامه فى النبوة والملك بعد موته ، وسخرت له الريح والشياطين .

قال قتادة فى الآية : ورث نبوته وملكه وعلمه ، وأعطى ما أعطى داود ، وزيد له تسخير الريح والشياطين ، وكان أعظم ملكا منه وأقضى منه وكان داود أشد تعبدا من سليمان ، شاكرا نعم الله تعالى اه . ثم ذكر بعض نعم الله عليه :

(وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير) أى وقال متحدثا بنعمة ربه ومنبها إلى ما شرفه به ليكون أجدر بالقول : يأيها الناس إن ربى يسر لى فهم ما يريد الطائر إذا صوت ، فأعطانى قوة أستطيع بها أن أتبين مقاصده التى يرمى إليها فضلا منه ونعمة .

وقد اجتهد كثير من الباحثين فى العصر الحاضر فعرفوا كثيرا من لغات الطيور

أى تنوع أصواتها لأداء أغراضها المختلفة من حزن وفرح وحاجة إلى طعام وشراب واستغاثة من عدو ، إلى نحو ذلك من الأغراض القليلة التى جعلها الله للطير .

وفى هذا معجزة لكتابنا الكريم لقوله فى آخر السورة : « وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا » .

وإنك لتعجب إذ ترى اليوم أن كثيرا من الأمم تبحث فى لغات الطيور والحيوان والحشرات كالتل والنحل وتبحث فى تنوع أصواتها لتنوع أغراضها ، فكأنه تعالى يقول : إنكم لاتعرفون لغات الطيور الآن وعلمتها سليمان ، وسيأتى يوم ينتشر فيه علم أحوال مخلوقاتى ويطلع الناس على عجائب صنعى فيها . (وأوتينا من كل شىء) مما نحتاج إليه فى تدبير الملك ويعيننا فى ديننا ودنيانا .

وهذا أسلوب يراد به الكثرة من أى شىء ، كما يقال فلان يقصده كل أحد ، ويعلم كل شىء ، وسيأتى فى مقال الهدهد عن بلقيس . « وَأُوتِيتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » . (إن هذا هو الفضل المبين) أى إن هذا الذى أوتيناه من الخيرات هو الفضل المبين الذى لا يخفى على أحد .

ثم ذكر بعض ما أوتيه سليمان بقوله :

(وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) أى وجمع له عساكره من مختلف النواحي ليحارب بهم من لم يدخل فى طاعته ، فهو يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا ، وقال ابن عباس لكل صنف وزعة ترد أولأها على آخرها لئلا تتقدمها فى السير كما يصنع الملوك ، وقال الحسن : لا بد للناس من وازع : أى سلطان يكفلهم . وقال عثمان بن عفان : ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن .

(حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) أى حتى إذا أشرفوا على وادى النمل صاحت نملة بما فهم منه سليمان أنها تأمرهم بأن يدخلوا مساكنهم خوفا من تحطيم سليمان وجنوده لهم وهم لا يشعرون بذلك .

(فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) أى فضحك متعجبا من حذرها وتحذيرها والهداية التى غرسها الله فيها ، مسرورا بما خصه الله من فهم مقاصدها ، وقال رب ألهمنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت بها علىَّ وعلى والدىَّ ، وأن أعمل عملا تحبه وترضاه ، وتوفى مسألما وألحقنى بالصالحين من عبادك .

وخلاصة ذلك — كأنه قال : العلم غاية مطلبى وقد حصلت عليه ولم يبق بعد ذلك إلا أن أطلب التوفيق للشكر عليه بالعمل الصالح الذى ترضاه ، وأن أدخل فى عداد الصالحين من آبائى الأنبياء وغيرهم .

تذكرة وعبرة بالآية

قد دلَّ بحث الباحثين فى معيشة النمل على ما لها من عجائب فى معيشتها وتدبير شئونها ، فإنها لتمدخد القرى فى باطن الأرض وتبنى بيوتها أروقة ودهاليز وغرفات ذوات طبقات ، وتملؤها حبوبا وقوتا للشتاء ، وتحفى ذلك فى بيوت من مساكنها منعطفات إلى فوق ، حذرا من ماء المطر .

وفى هذه الآية تنبيه إلى هذا لإيقاظ العقول إلى ما أعطيته من الدقة وحسن النظم والسياسة ، فإن نداءها لمن تحت أمرها وجمعها لهم ليشير إلى كيفية سياستها وحكمتها وتدبيرها لأموورها ، وأنها تفعل ما يفعل الملوك وتدبر وتسوس كما يسوس الحكام .

ولم يذكر الكتاب الكريم إلا ليكون أمثالا تضرب للعقلاء ، فيفهموا حال هذه الكائنات ، وكيف إن النمل أجمعت أمرها على الفرار خوفا من الهلاك كما تجتمع على طلب المنافع ، وإن أمة لاتصل فى تدبيرها إلى مثل ما يفعل هذا الحيوان الأعجم تكون أمة حمقاء تأنه فى أودية الضلال ، وهى أدنى حالا من الحشرات والديدان : « وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)
 لَا عَذَابَ لَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَازِبَحْنَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١)
 فَكُتَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ
 يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ
 عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ
 الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا
 لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ
 وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) .

شرح المفردات

التفقد : طلب ما فقد ، سلطان مبين : أى بحجة واضحة ، والإحاطة بالشئ :
 علما : علمه من جميع جهاته ، وسبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان أبو قبيلة
 باليمن ، ونبا : أى خبر عظيم ، والعرش : سرير الملك ، عن السبيل : عن سبيل الحق
 والصواب ، والخبء : هو الخبوء من كل شئ كالمنطق وغيره من شئون الغيب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات أنه سخر لسلطان الجن والإنس والطير وجعلهم
 جنودا له - ذكر هنا أنه احتاج إلى جندى من جنوده وهو الهدهد فبحث عنه فلم
 يجده فتوعده بالعذاب أو القتل إلا إذا أبدى له عذرا يبرئه ، فحضر بعد قليل وقص
 عليه خبر مملكة باليمن من أغنى الممالك وأقواها تحكمها امرأة هى بلقيس ملكة سبأ ،
 ووصف له مالها من جلال الملك وأهبتها وأنها وقومها يعبدون الشمس لا خالق الشمس .

العليم بكل شيء فى السموات والأرض ، والعليم بما نخفى وما نعلن ، والعليم بالسرى والنجوى ، وهورب العرش العظيم .

الإيضاح

(وتنفق الطير فقال ما لى لأرى الهدهد أم كان من الغائبين) أى وطلب ما فقد من الطير على حسب ما تقتضيه العناية بأمر الملك من الاهتمام بالرعايا ولا سيما الجند فقال : الهدهد حاضر ومنع مانع من رؤيته كساتر ونحوه ؟ ثم لاح له أنه غائب فقال أم كان قد غاب قبل ذلك ولم أشعر به ؟ .

وخلاصة ذلك — أغاب عنى الهدهد الآن فلم أره حين تنفقه ، أم كان قد غاب من قبل ولم أشعر بغيبته .

ثم توعده بالعذاب إذا لم يجد سببا يبرر به غيبته فقال :
(لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين) أى لأعذبه بحبسه مع ضده فى قفص ، ومن ثم قيل : أضيق السجون معاشرة الأضداد ، أو بإبعاده من خدمتى ، أو بإلزامه بخدمة أقرانه أو نحو ذلك ، أو لأذبحنه ليعتبر به سواء ، أو ليأتينى بحجة تبين عذره .

والخلاصة — إنه ليعذبه بأحد الأمرين الأولين إن لم يكن الأمر الثالث .

ثم ذكر أنه جاء بعد قليل وبين أن غيابه كان لأمر هام لدى سليمان .

(فكش غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين) أى فغاب مدة قصيرة بعد سؤال سليمان عنه ثم جاء فسأله : ما الذى أبطأ بك عنى ؟ فقال : اطلمت على ما لم تطلع أنت ولا جنودك عليه ، على سعة علمك واتساع أطراف مملكته .

وقد بدأ كلامه بهذا التمهيد ، لترغيبه فى الإصغاء إلى العذر ، واستمالة قلبه إلى قبوله ، وليبين خطر ما شغله ، وأنه أمر جليل الشأن يجب أن يتدبر فيه ، ليكون فيه

اخبر له ولمملكته ، فهو ما كان إلا لكشف مملكة سبأ ومعرفة أحوالها ومعرفة من يسوس أمورها ، ويدبر شئونها .

قال صاحب الكشف : ألهم الله الهدى فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتي من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والإحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له في علمه ، وتنبيهها على أن في أدنى خلقه وأضعفه من أحاط بما لم يحيط به ، لتتجاوز إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفه في ترك الإعجاب الذي هو فتنة العلماء ، وأعظم بها فتنة اه .

ثم فصل هذا النبا وبينه بقوله :

(إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عظيم) بين في هذا الكلام شئونهم الدنيوية وذكر منها ثلاثة أمور :

(١) إن ملكتهم امرأة وهي بلقيس بنت شراحيل ، وكان أبوها من قبلها ملكا جليل القدر واسع الملك .

(٢) إنها أوتيت من الثراء وأبهة الملك وما يلزم ذلك من عتاد الحرب والسلاح وآلات القتال ، الشيء الكثير الذي لا يوجد مثله إلا في الممالك العظمى .

(٣) إن لها سريرا عظيما تجلس عليه ، مرصعا بالذهب وأنواع اللآلئ والجواهر في قصر كبير رفيع الشأن ، وفي هذا أكبر الأدلة على عظمة الملك وسعة رفقته ورفعة شأنه بين الممالك .

و بعد أن بين شئونهم الدنيوية ذكر معتقداتهم الدينية فقال :

(وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) أى وجدتها وقومها في ضلال مبين ، فهم يعبدون الشمس لارب الشمس وخالق السكون المحيط بكل شيء علما ، وزين لهم الشيطان قبيح أعمالهم ، فظنوا حسنا ما ليس بالحسن ، وصدهم عن الطريق القويم الذي بعث به الأنبياء والرسول وهو إخلاص السجود والعبادة لله وحده .

(ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) أى فصدكم عن السبيل حتى لا يمتدوا ويسجدوا لله الذى يظهر الخبوء فى السموات والأرض كالمطر والنبات والمعادن الخبوءة فى الأرض ، ويعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال كما قال : « سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ » .

ولما بين أن كل العوالم مفتقرة إليه ومحتاجة إلى تديره ، ذكر ما هو كالدليل على ذلك ، فأبان أن أعظمها قدرا ، وهو العرش الذى هو مركز تدير شؤون العالم هو الخالق له وهو محتاج إليه فقال :

(الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) أى هو الله الذى لا تصلح العبادة إلا له وهو رب العرش العظيم ، فكل عرش وإن عظم فهو دونه ، فأفردوه بالطاعة ولا تشركوا به شيئا .

قَالَ سَتَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ يَكْتَابِى هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّ أُلْقِىَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىَّ وَائْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣١) .

شرح المفردات

تول عنهم : أى تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه لينكون ما يقولونه يسمع منك ، فانظر : أى تأمل وفكر ، يرجعون : أى يرجع بعضهم إلى بعض من القول ويدور بينهم بشأنه ، والملأ : أشرف القوم وخاصة الملك ، ألا تعلوأ على : أى ألا تتكبروا ولا تنقادوا للنفس والهوى ، مسلمين : أى متقادين خاضعين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الهدهد أبدى المعاذير لتبرئة نفسه - أردف ذلك بإجابة سليمان عن مقالة الهدهد ، ثم أمره بتبليغ كتاب منه إلى ملكة سبأ والتنجى جانباً ليستمع ما يدور من الحديث بينها وبين خاصتها بشأنه .

الإيضاح

(قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟) أى قال سنختبر مقالك ، ونتعرف حقيقته بالامتحان ، أصادق أنت فيما تقول ، أم كاذب فيه لننتخلص من الوعيد ؟ .

وفى التعبير بقوله : كنت من الكاذبين ، دون أن يقول أم كذبت ، إيدان بأن تليق الأقوال المنمقة ، واختيار الأسلوب الذى يستهوى السامع إلى قبولها من غير أن يكون لها حقيقة تعبر عنها - لا يصدر إلا من مرن على الكذب وصار سحجة له حتى لا يجد وسيلة للبعد عنه ، وهذا يفيد أنه كاذب على أتم وجهه ، ومن كان كذلك لا يوثق به .

ثم شرع يفعل ما يختبره به فكتب له كتاباً موجزاً وأمره بتبليغه إلى ملكة سبأ فقال :

(أذهب بكتابتى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) أى اذهب بهذا الكتاب فألقه إليهم ، ثم تنح عنهم وكن قريباً منهم واستمع مراجعة الملكة أهل مملكتها ، وما بعد ذلك من مراجعة بعضهم بعضاً ونقاشهم فيه .
ثم فصل ما دار بينهم بشأنه فقال :

(قالت يا أيها الملكأ إني ألقى إلى كتاب كريم) أى وبعد أن ذهب الهدهد بالكتاب ألقاه إلى الملكة فقضت خاتمه وقرأته وجمعت أشرف قومها ومستشاريها

وقالت تلك المقالة للمشورة وطلبت أخذ رأى فى ذلك الخطب الذى نزل بها كما هو دأب الدول الديمقراطية .

وفى الآية إيماء إلى أمور :

- (١) سرعة الهدهد فى إيصال الكتاب إليهم .
- (٢) إنه أوتى قوة المعرفة فاستطاع أن يفهم بالسمع من كلامهم .
- (٣) إنها ترجمت ذلك الكتاب فوراً بواسطة تراجمتها .
- (٤) إن من آداب رسل الملوك أن يتنحوا قليلا عن المرسل إليهم بعد أداء الرسالة ، ليتشاور المرسل إليهم فيها .

ثم بينت مصدر الكتاب وما فيه نخاصتها وذوى الرأى فى مملكته فقالت .
(إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علىّ واثنوني مسلمين)
يؤنس هذا الكتاب على وجازته يدل على أمور :

- (١) إنه مشتمل على إثبات الإله ووحدانيته وقدرته وكونه رحمانا رحيمًا .
- (٢) نهيمهم عن اتباع أهوائهم ، ووجوب اتباعهم للحق .
- (٣) أمرهم بالحنىء إليه منقادين خاضعين .

وبهذا يكون الكتاب قد جمع كل ما لا بد منه فى الدين والدنيا .

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى
تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَآنْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ
فَنَاقِظَةٌ بِهِمْ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) .

شرح المفردات

أفتوني : أى أشيروا علىّ بما عندكم من الرأى والتدبير فيما حدث ، قاطعة أمراً : أى باتة فيه منفذته ، تشهدون : أى تحضرونى ، والمراد بالقوة : القوة الحسية وكثرة الآلات ، والمراد بالبأس : النجدة والثبات فى الحرب .

المعنى الجملى

ذكر فيما سلف أن المدهد حينما ألقى الكتاب أحضرت بطاقتها وأولى الرأى لديها وقرأت عليهم نصّ الكتاب ، وهنا بين أنها طلبت إليهم إبداء آرائهم فيما عرض عليهم من هذا الخطب المذلل والحادث الجلل حتى ينبجلى لهم صواب الرأى فيما تعمل ويعملون ، لأنها لا تريد أن تستبد بالأمر وحدها ، فقلّبوا وجوه الرأى واشتد الحوار بينهم وكانت خاتمة المطاف أن قالوا : الرأى لدينا القتال ، فإننا قوم أولو بأس ونجدة ، والأمر مفوّض إليك فافعل ما بدا لك ، وأن قالت : إنى أرى أن عاقبة الحرب الدمار والخراب وصيرورة العزيز ذليلاً ، وإنى أرى أن نهاده ونرسل إليه بهدية ثم ننظر ماذا يكون رده ، علّه يقبل ذلك منا ويكف عنا أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه كل عام ونلتزم ذلك له ، وبذا يترك قتالنا وحر بنا .

الإيضاح

(قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) أى قالت بلقيس لأشراف قومها : أيها الملأ أشيروا علىّ فى أمر هذا الكتاب الذى ألقى إليّ ، فإنى لا أفضى فيه برأى حتى تشهدونى فأشاوركم فيه .

وفى قولها هذا دلالة على إجلالهم وتكريمهم ليحضوها النصح ، ويشيروا عليها بالصواب ، ولتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضاءهم على الطاعة لها ، علما منها أنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن

لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجِدْهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم ، وربما كان فى استبدادها برأيها وهن فى طاعتها ، وتعمية فى تقدير أمرهم ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريد من قوة شوكتهم وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم : (نحن أولو قوة وأولو بأس شديد) على ما لها من عقل راجح وأدب جمّ فى التخاطب .

وعلى هذا النهج سار الإسلام ، فقد قال سبحانه لنبيه : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » . وقد مدح سبحانه صحابة رسوله بقوله : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ » . فأجابوا عن مقالها .

(قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) أى قال الملأ من قومها حين شاورتهم فى أمرها وأمر سليمان : نحن ذوو بأس ونجدة فى القتال ، إلى ما لنا من وافر العدة وعظيم العتاد وكثير الكراع والسلاح ، وإن أسر القتال والسلم مفوض إليك ، فانظري وقابلي الرأي على وجوهه ، ثم مرينا تأتمر بذلك .

ولما أحست منهم الميل إلى القتال شرعت تبين لهم وجه الصواب ، وأنهم فى غفلة عن قدرة سليمان وعظيم شأنه ، إذ من سخر له الطير على الوجه الذى يريد . ليس من السهل مجالדתه والتغلب عليه .

(قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون) أى قالت لهم حين عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان : إن الملوك إذا دخلوا قرية فاتحين أفسدوها بتخريب عمارتها وإتلاف أموالها ، وأذلوا أهلها بالأسر والإجلاء عن موطنهم أو قتلهم تقتيلاً ، ليتم لهم الملك والغلبة ، وتتقرر لهم فى النفوس المهابة ، وهكذا يفعلون معنا .

وفى هذا تحذير شديد لقومها من مسير سليمان إليهم ، ودخوله بلادهم .

وبعد أن أبانت ما في الحرب والمجالدّة من الخطر أتبعته بما عزمت عليه من المسألة بقولها :

(وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بهم يرجع المرسلون ؟) أى وإني سأرسل إليه هدية من نفائس الأموال لأتعرّف حاله وأختبر أمره ، أنبي هو أم ملك ؟ فإن كان نبيا لم يقبلها ولم يرض منا إلا أن نتبعه على دينه ، وإن كان ملكا قبل الهدية وانصرف إلى حين ، فإن الهدايا مما تورث المودة ، وتذهب العداوة ، وفي الحديث : « تصافحوا يذهب الغل ، وتمهادوا تحابوا وتذهب الشحناء » ولقد أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهم لبعض تولد في قلوبهم الوصالا
وتزرع في الضمير هوى ووُدًّا وتكسبهم إذا حضروا جمالا

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانُ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ ؟ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا
آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)

شرح المفردات

لا قبل لهم بها : أى لا طاقة لهم بمقاومتها ، صاغرون : أى مهانون محقرون .

الإيضاح

لما وصلت الهدية مع الرسول إلى سليمان وكانت من ذهب وجواهر ولائى وغيرها مما تقدمه الملوك العظام ، قال سليمان للرسول : أتصانعوننى بالمال لأترككم على شرككم وكفركم ؟ لن يكون ذلك ، إن الذى أعطانيه الله من النبوة والملك الواسع الأرجاء والمال الوفير - خير مما أتم فيه ، فلا حاجة لى بهديتكم ، وليس رأى فى المال كما ترون ، فأنتم تفرحون به دونى ، فأرجع بما جمعت به إلى من أرسلك ،

ولنا أنيكم بجنود لا طاقة لكم بدفعها ولا الانتصار عليها ، ولنخرجكم من أرضكم أذلة
مأسورين مستعبدين ، إن لم تأتوني مستسلمين متقادين .

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي
مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عَفَرْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ
مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ
أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ
هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا
يُشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ (٤٠) .

شرح المفردات

العرش : سرير الملك ، مسلمين أى خاضعين متقادين ، العفريت من البشر :
الخبيث الماكر الذى يعفر أقرانه ، ومن الشياطين : المارد ، مقامك : أى مجلسك الذى
تجلس فيه للحكم ، قوى : أى قادر على حمله لا أعجز عنه ، أمين : أى على ما فيه من
الآلى وجواهر وغيرها ، والكتاب : هو علم الوحي والشرائع والذى عنده هو سليمان
عليه السلام كما اختاره الرازى وقال إنه أقرب الآراء ، يرتد : أى يرجع ، والطرف :
تحريك الأجفان والمراد بذلك السرعة العظيمة ، مستقرا : أى ساكنا قارئا على حاله
التي كان عليها ، الفضل : التفضل والإحسان ، ليلوئى : أى ليعاملنى معاملة المختبر ،
أم أكفر أى أقصر فى أداء واجب الشكر ، كفر أى لم يشكر .

المعنى الجملى

استبان مما سلف أن سليمان رفض قبول الهدايا وتهدد الرسول بأن قومه
وما كتبهم إن لم يأتوا إليه طائعين خاضعين فسيوجه إليهم جيشا جرارا يفكّل بهم

أشد التشنكيل ، يقتل من يقتل ويأتى بالباقيين أسارى وهم صاغرون ، ويخليهم جميعا عن الديار والأوطان ، ويأخذ أموالهم غنائم له - وهنا ذكر أنهم خافوا تهديده واستجابوا لدعوته ، فتوجهت الملكة وأشراف قومها إليه ، لكن سليمان رأى حين قربت من الوصول إليه أن يحضر سرير ملكها قبل مقدّمها ، ليكون في ذلك دلالة على قدرة الله وإثبات النبوة وتظاهرها عليها الأدلة من كل أوب ، فسأل أعوانه : أيكم يستطيع أن يحضره قبل وصولها إلينا ، فأجابه عفريت من الجن بأن في استطاعته أن يحضره قبل قيامه من مجلس الحكم والقضاء ، فقال هو : بل أنا آتيكم به كالح البصر ، وقد كان كما قال : فرأى العرش حاضرا أمامه فشكر ربه على ما آتاه من النعم العظام الذي لا يستطيع إيفاء حقها من الشكر .

وعليها أن تؤمن بما جاء في الكتاب الكريم على أنه معجزة سليمان ، وإن كانت لا تنطبق على السنن العادية التي وضعها ربنا لخلقها ، فعلم البشر إلى الآن لم يصل إلى تحقيق ذلك عمليا مع تقدم سبل الانتقال ، فالطائرات على سرعتها التي أدهشت العقول لا تستطيع أن تسافر من جنوب اليمن إلى أطراف الشام في مثل تلك اللحظات الوجيزة .

الإيضاح

لما رجعت الرسل إلى بلقيس وأخبرتها بما قال سليمان قالت : قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به طاقة ، وما نصنع بمكابرتة شيئا ، وبعثت إليه إنى قادمة إليك بأشراف قومي ، لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك ، ثم شخصت إليه ، فجعل يبعث الجن يأتونه بأخبارها ويعلمونه غاية سيرها كل يوم حتى إذا دنت منه جمع جنده من الجن والإنس وتكلم فيهم .

(قال يأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين) أى قال أيها الأعوان من منكم في مسكنته أن يأتيني بسرير ملكها قبل قدومها علينا ، لنطالعها

على بعض ما أنعم الله به علينا من العجائب النبوية والآيات الإلهية ، لتعرف صدق نبوتنا ، ولتعلم أن ملكهما فى جانب عجائب الله وبدائع قدرته يسير ، وحينئذ تقدم إليه بعض جنده بمقترحات .

(قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين) أى قال شيطان قوى أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس قضائك وكان إلى منتصف النهار ، ثم زاد الأمر توكيدا فقال : وإنى على الإتيان به لقادر لا أعجز عنه ، وإنى لأمين لا أمسه بسوء ولا أقتطع منه شيئا لنفسى - حينئذ .

(قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) أى قال سليمان للعفريت متحدثا بنعمة الله وعظيم فضله عليه : أنا أفعل ما لا تستطيع أنت ، أنا أحضره فى أقصر ما يكون مدة ، أنا أحضره قبل ارتداد طرفك إليك ، وقد كان كما قال :

(فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي لييلوني أشكر أم أكفر؟) أى فلما رآه سليمان ساكنا ثابتا على حاله لم يتبدل منه شيء ولم يتغير وضعه الذى كان عليه ، قال هذا تفضل من الله ومنة ليختبرنى : أشكر بأن أراه فضلا منه بلا قوة منى أم أجحد فلا أشكر بل أنسب العمل إلى نفسى .

وإن النعم الجسمية والروحية والعقلية كلها مواهب يتمتعن الله بها عباده ، فمن ضل بها هوى ، ومن شكرها ارتقى ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غنى كريم) أى ومن شكر فقائده الشكر إليه ، لأنه يجلب دوام النعمة ، ومن جحد ولم يشكر فإن الله غنى عن العباد وعبادتهم ، كريم بالإععام عليهم وإن لم يعبدوه ، كما قال : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا » وقال : « وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ » وروى مسلم قوله صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه : « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد

ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر
قلب رجل منهم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها
لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن
إلا نفسه .

قَالَ نَكُرُّوا لَهَا عَرَشَهَا نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ
لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا
الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ
حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ، وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (٤٤) .

شرح المفردات

نكروا لها عرشها : أى غيروا هيئته وشكله بحيث لا يعرف بسهولة ، مسلمين :
أى خاضعين منقادين ، صدها : أى منعها ، والصرح : القصر وكل بناء عال ، واللجة
الماء الكثير ، ممرّد : أى ذو سطح أملس ومنه الأمرّد للشاب الذى لا شعر فى وجهه ،
القوارير : الزجاج واحدها قارورة ، أسلمت : أى خضعت .

المعنى الجملى

علمنا فيما سلف أن بلقيس تجهزت للسفر مقبلة إلى سليمان ، وأن الجن كانت
تترسم خطاها من يوم إلى آخر حتى إذا دنت منه سأل سليمان جنده : من يستطيع

إحضار عرشها؟ فقال عفريت من الجن : أنا أفعل ذلك قبل أن تقوم من مجلس القضاء ، فقال سليمان : بل أستطيع أن أحضره فى لمح البصر وكان كما قال : فلما رآه أمامه شكر ربه على جزيل نعمه .

وهنا ذكر أمر سليمان بتغيير معالم العرش وتبديل أوضاعه ، ثم سؤلها عنه ليختبر مقدار عقلها ، ولتعلم صدق سليمان فى دعواه النبوة ، وتبظاهر لديها الأدلة على قدرة المولى سبحانه .

وقد كان مما أعده لنزولها قصر عظيم مبنى من الزجاج الشفاف ، فرشت أرضه بالزجاج أيضا ، وفى أسفل ماء جار فيه صنوف السمك ، فلما دخلت فى بهوه خالته لجة من الماء فكشفت عن ساقها لتخوض فيه ، فأنبأها سليمان بأن هذا زجاج يجرى تحته الماء ، حينئذ أيقنت بأن دين سليمان هو الحق وأنها قد ظلمت نفسها بكفرها بالله ربها خالق السموات والأرض وصاحت تقول : أسأمت مع سليمان لله رب العالمين .

الإيضاح

(قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون) أى قال سليمان لجنده لما جاء عرش بلقيس : غيروا لها معالم السرير وبدلوأ أوضاعه ، لاختبر حالها إذا نظرت إليه ونرى : أتهتدى إليه وتعلم أنه هو أم لاتستبين لها حقيقة حاله ؟ ثم أشار إلى سرعة مجيئها وخضوعها بقوله :

(فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو) أى فحين قدمت واطلعت على عرشها سئلت عنه ، أعرشك مثل هذا ؟ أجابت بما دل على رجاحة عقلها إذ قالت كأنه هو ، ولم تجزم بأنه هو ، فرمما كان مثله .

قال مجاهد : جعلت تعرف وتنكر ، وتعجب من حضوره عند سليمان فقالت :

كأنه هو : وقال مقاتل : عرفته ولكنها شبت عليهم كما شبهوا عليها ، ولو قيل لها : أهذا عرشك لقلت نعم .

ولما ظنت أن سليمان أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار المعجزة لها قالت :
(وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) أى وأوتينا العلم بكمال قدرة الله وصدق نبوتك من قبل هذه المعجزة بما شاهدناه من أمر الهدد ، وبما سمعناه من رسلنا إليك من الآيات الدالة على ذلك ، وكنا منقادين لك من ذلك الحين ، فلا حاجة بي إلى إظهار معجزات أخرى .

ثم ذكر سبحانه ما منعها عن إظهار ما ادعت من الإسلام إلى ذلك الحين فقال :
(وصعدنا ما كانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين) أى ومنعها ما كانت تعبد من دون الله وهو الشمس عن إظهار الإسلام والاعتراف بوحدانيته تعالى ، من قبل أنها من قوم كانوا يعبدونها ونشأت بين أظهرهم ولم تكن قادرة على إظهار إسلامها إلى أن مثلت بين يدي سليمان فاستطاعت أن تنطق بما كانت تعتقده في قرارة نفسها ويحول في خاطرها .

روى أن سليمان أمر قبل مقدمها ببناء قصر عظيم جعل صحنه من زجاج أبيض شفاف يجرى من تحته الماء وألقى فيه دواب البحر من سمك وغيره ، فلما قدمت إليه استقبلها فيه وجلس في صدره ، فحين أرادت الوصول إليه حسبته ماء فكشفت عن ساقها لئلا تبطل أذيالها كما هي عادة من يخوض الماء ، فقال لها سليمان : إن ماتنطينه ماء ليس بالماء بل هو صرح قد صنع من الزجاج فسرت ساقها وعجبت من ذلك ، وعلمت أن هذا ملك أعز من ملكها وسلطان أعز من سلطانها ، ودعاها سليمان إلى عبادة الله وعابها على عبادة الشمس دون الله ، فأجابته إلى ما طلب وقالت : رب إني ظلمت نفسي بالثبات على ما كنت عليه من الكفر وأسألت مع سليمان لله رب كل شيء ، وأخلصت له العبادة وإلى ما تقدم أشار سبحانه بقوله :

(قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبتها لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح
مجرد من قوارير ، قالت : رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله
رب العالمين) .

أخرج البخاري في تاريخه والعقيلي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : « أول من صنعت له الحمامات سليمان » .

قصص صالح

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ
يَخْتَصِمُونَ (٤٥) نَالِ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا
تَسْتَعْفِفُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا أَطِيعْنَا بَكَ وَبَيْنَ مَمَكَ قَالَ
طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَجْعَةٌ
رَهْطٌ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ
وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩)
وَمَكْرُومًا مَكْرًا وَمَكْرُومًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ يَوْمَئِذٍ خَالِوِيَّةُ
بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ (٥٣)

شرح المفردات

فريقان : أي طائفتان طائفة مؤمنة وأخرى كافرة ، يختصمون : أي يجادل
بعضهم بعضاً ويحاججه ، السيئة : العقوبة التي تسوء صاحبها ، الحسنه : التوبة ،

لولا : أى هلا وهى كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، اطينا : أى تطايرنا
وتشاء منا بك ، طائركم : أى ما يصيبكم من الخير والشر ، وسعى طائرا لأنه لاشئ
أسرع من نزول القضاء المحتوم ، تفتنون : أى تختبرون بتعاقب السراء والضراء ،
والمراد بالمدينة : الحِجر ، والرهط والنفر : من الثلاثة إلى التسعة ، تقاسموا : أى اخلفوا ،
والبيات : مباغطة العدو ومفاجأته بالإيقاع به ليلا ، وليه : أى من له حق القصاص
من ذوى قرابته إذا قتل ، والمهلك : الهلاك ، والمسكر : التدبير الخفى لعمل الشر ،
والتدمير : الإهلاك ، خاوية : أى خالية ، لآية : أى لعبرة وموعظة .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون)
أى ولقد بعثنا إلى ثمود أخاهم صالحا وقلنا لهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له ،
ولا تحملوا معه إلها غيره .

وحين دعاهم إلى ذلك افترقوا فرقتين :

(١) فريق صدق صالحا وآمن بما جاء به من عند ربه .

(٢) فريق كذبه وكفر بما جاء به .

وصارا يتجادلان ويتخاصمان ، وكل منهما يقول أنا على الحق وخصمى
على باطل .

ثم ذكر أن صالحا استعطف المكذبين وكانوا أكثر عددا وأشد عتوا وعنادا
حتى قالوا : « يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

(قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ؟) أى لم تستعجلون بالمعقوبة التى
يسوءكم نزولها بكم قبل حصول الخيرات التى بشرتكم بها فى الدنيا والآخرة إن أنتم
أمنتم بى .

ثم نصحهم وطلب إليهم أن يستغفروا ربهم لعلمهم يرجون فقال :

(لولا تستغفرون الله لعلكم ترحون) أى هلا تتوبون إلى الله من كفركم ، فيغفر لكم عظيم جرمكم ويصفح عن عقوبتكم على ما أتيتم به من الخطايا ، لعلكم ترحمون بقبولها ، إذ قد جرت سنة الله ألا تقبل التوبة بعد نزول العقوبة .

ولما قال لهم صالح ما قال وأبان لهم سبيل الرشاد وأجابه بفظاظة وغلظة .
(قالوا اطيرنا بك وبمن معك) أى قالوا : إنا نشاء منا بك وبمن آمن معك ، إذ زجرنا الطير فاعلمنا أن سيصيننا بك وبهم من المكارة ما لا يقبل لنا به ، ولم نزل في اختلاف وافتراق منذ اخترعتم دينكم وأصابنا القحط والجذب بسببكم .

وسمى الشاؤم تطيرا من قبل أنه كان من دأبهم أنهم إذا خرجوا مسافرين ففروا بطائر زجره : أى رموه بحجر ونحوه ، فإن مر سائحا بأن مر من ميامن الشخص إلى مياسره تينوا به ، وإن مر بارحا بأن مر من المياسر إلى الميامن تشاءموا منه .
فأجابهم صالح عليه السلام :

(قال طائركم عند الله) أى قال إن ما يصيبكم من خير أو شر مكتوب عند الله وهو بقضائه وقدره ، وليس شيء منه بيد غيره ، فهو إن شاء رزقكم وإن شاء حرّمكم .
وسمى ذلك القضاء طائرا لسهولة نزوله بالإنسان ، فلا شيء أسرع منه نزولا .
ثم أبان لهم سبب نزول ما ينزل من الشر بقوله :

(بل أنتم قوم تقنون) أى بل أنتم قوم يختبركم ربكم إذ أرسلنى إليكم :
أطيعونه فتمعلوا بما أمركم به فيجزىكم الجزيل من ثوابه ، أم تعصونه فتمعلوا بخلافه فيحل بكم عقابه .

ثم ذكر أن قريته كانت كثيرة الفساد فقال :
(وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون) أى وكان في مدينة صالح وهى الحجر تسعة أنفس يعيشون في الأرض فسادا لا يعملون فيها صلاحا .

ثم بين بعض ما عملوا من الفساد :

(قالوا ثقاسموا بالله لنبيته وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون) أى قال بعضهم لبعض فى أثناء المشاورة فى أمر صالح عليه السلام بعد أن عقروا الناقة وتوعدهم بقوله : « تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » احللوا لنباغته وأهله بالهلاك ليلا ثم لنقولن لأولياء الدم ، ما حضرنا هلاكهم ، ولا ندرى من قتله ولا قتل أهله . ونخلف إنا لصادقون فى قولنا .

وإذا كانوا لم يشهدوا هلاكهم فهم لم يقتلوه بالأولى ، وأيضا فهم إذا لم يقتلوا الأتباع فأخربهم ألا يقتلوا صالحا . كان هؤلاء نفر تحالفوا أن يبيتوا صالحا وأهله ثم يفكروا عند أوليائه أنهم ما فعلوا ذلك ولا رأوه ، وكان هذا مكرهم منهم ، ومن ثم قال سبحانه محذرا لهم ولأمثالهم .

(ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) أى وغدر هؤلاء النسمة الرهط الذين يفسدون فى الأرض بصالح ، إذ صاروا إليه ليلا ليقتلوه وأهله وهو لا يشعر بذلك ، فأخذناهم بعقوبتنا إياهم وتصجيلنا العذاب لهم من حيث لا يشعرون بمكر الله بهم .

ثم بين ما ترتب على ما باشروه من المكسر بقوله : (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين) أى ففكر كيف آل أمرهم وكيف كانت عاقبة مكرهم ، فقد أهلكناهم وقومهم الذين لم يؤمنوا على وجه يقتضى النظر ويستعصى الاعتبار ويكون عظة لمن غدر كدبرهم فى جميع الأزمان . روى أنه كان لصالح فى الحِجْر مسجد فى شعبٍ يصلّى فيه ، فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاث ، فمحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث ، فذهبوا إلى الشعب ليقطعوه فوقعت عليهم صخرة من جبالهم طيقت عليهم الشعب فهلكوا وهلك الباقون فى أماكنهم بالصيحة ، ونجى الله صالحا ومن آمن معه .

ثم أكد ما تقدم وقرره بقوله :

(فذلك بيوتهم خاوية بما ظفروا) أى فذلك مساكنهم أصبحت خالية منهم ،
 إذ قد أهلكهم الله بظلمهم أنفسهم بشركهم به وتكذيبهم برسوله .
 (إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون) أى إن فى فعلنا بشمود ما قصصناه عليك
 لعظة لمن كان من أولى المعرفة والعلم ، فيعلم ارتباط الأسباب بمسبباتها ، والنتائج
 بمقدماتها ، على حسب السبب التى وضعها الله فى الكون .
 وبعد أن ذكر من هلكوا أردفهم بمن أنجاهم فقال :
 (وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) أى وأنجينا من نعمتنا وعذابنا الذى أحلناه
 بشمود - رسولا صالحا ومن آمن به لأنهم كانوا يتقون سخط الله ويخافون شديد
 عقابه ، بتصديةهم رسوله الذى أرسله إليهم .
 وفى هذا إيماء إلى أن الله ينجى محمدا وأتباعه عند حلول العذاب بمشركى قريش
 حين يخرج من بين ظهرانيهم كما أحلّ بقوم صالح ما أحل حين خرج هو والمؤمنون
 إلى أطراف الشام ونزل رملة وفلسطين .

قصص لوط

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤)
 أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
 مُّجْرِمُونَ (٥٥) .

الإيضاح

(ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ؟) أى واذا كر لقومك
 حديث لوط لقومه إذ قال لهم منذرا ومخدرا : إنكم لتفعلون فاحشة لم يسبقكم بها أحد
 من بنى آدم ، مع علمكم ببحرها لدى العقول والشرائع (واقتراف القبيح ممن يعلم
 قبحه أشنع) .

ثم بين ما يأتون من الفاحشة بطريق التصريح بعد الإيهام ليكون أوقع في النفس فقال :

(أنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ؟ بل أنتم قوم تجهلون) أى أينبغى أن تأتوا الرجال وتقودكم الشهوة إلى ذلك وتذروا النساء اللاتي فيهن محاسن الجمال وفيهن مباحج الرجال ، إنكم تقوم جاهلون سفهاء حمقى ماجنون .
ونحو الآية قوله : « أَتَأْتُونَ الذَّكَرَ إِنَّا مِنَ الْعَالَمِينَ ؟ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ » .

وقد أشار سبحانه إلى قبيح فعلهم وعظيم شناعته من وجوه :

- (١) قوله : (الرجال) وفيه الإشارة إلى أن الحيوان الأعجم لا يرضى بمثل هذا .
- (٢) قوله : (من دون النساء) وفي ذلك إيحاء إلى أن تركهن واستبدال الرجال بهن خطأ شنيع وفعل قبيح .
- (٣) قوله : (بل أنتم قوم تجهلون) وفي هذا إيحاء إلى أنهم يفعلون فعل الجهلاء الذين لا يقول لهم ، ولا يدرون عظيم قبح ما يفعلون .

هذا آخر ما سطرناه تفسيراً لهذا الجزء من كلام ربنا العليم القدير ، فله الحمد والمنة .
وكان ذلك بمدينة حلوان من أرباض القاهرة في الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة أربع وستين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فِي حَرْفِ ت

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

البحث	الصفحة
ما شرطه المشركون للتصديق بنبوته محمد صلى الله عليه وسلم .	٣
ما يقوله الملائكة للمشركين يوم القيامة .	٥
ندمهم في الآخرة على ما فعلوا في الدنيا .	٨
مثل المجلس الصالح وجليس السوء .	٩
شكاية الرسول إلى ربه بأن قومه هجروا كتابه .	١٠
كان لكل نبي أعداء من شياطين الإنس والجن .	١٠
فوائد إنزال القرآن منجما .	١٢
وعد الله رسوله بتأييده بإزالة ما يهولون من الشبه .	١٣
قصص بعض الأنبياء مع أممهم .	١٤
قصص عاد وثمود وأصحاب الرس وغيرهم .	١٧
استهزاء المشركين بالرسول صلى الله عليه وسلم وقولهم أهذا الذي بعث الله رسولا .	١٩
احتفال النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة والإلحاف في البلاغ .	١٩
تسفيه آراء المشركين من وجوه ثلاثة :	٢٠
الأدلة على التوحيد .	٢٣
بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة كما جاء في الحديث : بعثت إلى الأحمر والأسود .	٢٥
النهي على المشركين في عبادة الأصنام .	٢٧
المشركون يظهرون أولياء الشيطان ويعادون أولياء الرحمن .	٢٧

الصفحة	المبحث
٢٧	أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتوكل على الله وحده ألا يرهب الوعيد ولا التهديد .
٣١	خلق السموات والأرض في ستة أيام .
٣٣	جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يتذكر .
٣٤	أوصاف خلص عباده المؤمنين .
٣٦	صفة مشى النبي صلى الله عليه وسلم .
٣٧	سؤالهم صرف العذاب عنهم .
٣٨	كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم .
٣٩	سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الذنب أكبر ؟ .
٤٠	ترغيب الأبرار في التوبة .
٤١	كان عمر بن الخطاب يحلّد شاهد الزور أربعين جلدة .
٤١	إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث .
٤٢	إحسان الله إلى عباده المتقين .
٤٢	لولا عبادتكم ربكم لم يعذبكم .
٤٥	الحروف المقطعة في أوائل السور .
٤٦	جرت سنة الله أن يكون الإيمان طوعاً لا كرها .
٤٦	إعراض المشركين عن النظر في الآيات .
٤٨	بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بتأييده ونصره .
٤٨	قصص موسى عليه السلام .
٤٩	تبليغ الرسول صلى الله عليه وسلم بأن قومه ليسوا ببذع في الأمم .
٥٠	الأسباب التي جعلت موسى يطلب معونة هرون .
٥١	تقريع فرعون لموسى على حسن صنيعه له .
٥٢	قال موسى لفرعون إن أحسنت إلى فقد أسأت إلى شعبي .

الصفحة	المبحث
٥٣	تعريف موسى لإلهه أمام فرعون .
٥٤	بعد أن عجز فرعون عن دحض حجج موسى وصفه بالجنون .
٥٥	تهديد فرعون لموسى بالسجن .
٥٦	الأدلة التي أدلى بها موسى على صحة نبوته .
٥٧	ما يرويه فرعون ، موقفه من موسى أمام شعبه .
٥٨	المناظرة بين موسى والسحرة وفلج موسى عليهم .
٦١	إيمان السحرة بموسى .
٦٢	تهديد فرعون للسحرة على إيمانهم .
٦٣	رد السحرة على تهديد فرعون .
٦٥	أمر الله لموسى بالهجرة مع قومه من مصر .
٦٥	ما جاء في سفر الخروج من التوراة عن هذه الهجرة .
٦٦	ما قوى به فرعون جنده في تعقبهم .
٦٧	ما جازى الله به فرعون وقومه .
٦٨	ما طمأن به موسى قومه حين خافوا من تعقبهم .
٦٨	كيف نجى الله موسى وقومه .
٦٩	قصص إبراهيم عليه السلام مع قومه .
٧١	محااجة إبراهيم لقومه .
٧٣	ما وصف به إبراهيم رب العالمين .
٧٤	ما طلبه إبراهيم من ربه .
٧٦	تقريب الجنة من المتقين والنار من الكافرين .
٧٧	سؤال أهل النار سؤال تقرير .

الصفحة	المبحث
٧٨	ندم المشركين على ما كان قد فرط منهم .
٨٠	قصص نوح عليه السلام مع قومه .
٨٢	الحجة التي تذرعوها بها لعدم إجابتهم دعوته .
٨٣	تهديدهم لنوح عليه السلام .
٨٤	قصص هود عليه السلام مع قومه .
٨٦	ما أنكره هود على قومه .
٨٧	عظته لقومه على ما آتاهم من النعم .
٨٨	بعد أن أنذرهم ووبخهم فابلوه بالإنكار .
٨٩	قصص صالح عليه السلام مع قومه .
٩١	ما خاطب به قومه محذرا لهم .
٩٢	إجابتهم له على ما اقترحوه من الآيات .
٩٣	قصص لوط عليه السلام مع قومه .
٩٤	توبيخ لوط لقومه على قبيح أفعالهم .
٩٥	إغاثة الله له بعد أن استغاثه .
٩٦	ما كتبه الباحثون حديثا عن قري قوم لوط .
٩٧	رواية التوراة لقصة قوم لوط .
٩٨	قصص شعيب عليه السلام مع قومه .
١٠٠	نهيهم عن نخس الحقوق .
١٠٠	قدحهم في نبوة الرسول لأمرين .
١٠١	ما نزل بهم من العذاب .

الصفحة	المبحث
١٠٢	إخبار القرآن عن الغيب .
١٠٣	القرآن ذكر في الكتب السالفة .
١٠٤	الرد على المشركين بأن لمحمد تابعا من الجن .
١٠٥	بعث المشركون إلى أهل يثرب يسألونهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم .
١٠٦	تسالية الرسول صلى الله عليه وسلم عن عدم إيمان قومه .
١٠٧	طول العمر لا يدفع عنهم العذاب المنتظر .
١٠٨	لا يهلك الله قرية إلا بعد إنذارها .
١٠٩	إنذار النبي صلى الله عليه وسلم لقريش .
١١١	أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلمين الجانب .
١١٢	تنزل الشياطين على كل أفاك أثيم .
١١٤	الشعراء يتبعهم الغاؤون وذكر سبب ذلك .
١١٥	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحض على قول الشعر انتصارا للدين .
١١٦	تحذير المشركين من سوء العاقبة .
١١٧	خلاصة ما حوته سورة الشعراء .
١١٨	أصح الأقوال في فواتح السور .
١١٩	لوازم الإيمان الصحيح .
١٢٠	يحبب الله إلى من لا يؤمن بالآخرة سوء عمله .
١٢٢	قصص موسى عليه السلام حين عودته من مدين .
١٢٣	ما جاء في التوراة عن ذلك .
١٢٤	ما أراه ربه من الآيات الدالة على قدرته .
١٢٥	قصص داود وسليمان عليهما السلام .

المبحث	الصفحة
كثير من العلماء الآن يهتمون بالبحث عن لغات الطيور والحشرات كالنمل والنحل .	١٢٨
تذكرة وعبرة بالآية .	١٢٩
تفقد سليمان لأهدده .	١٣٠
وصف مملكة سبأ .	١٣٢
كتاب سليمان للملكة سبأ وردها عليه .	١٣٢
ما يدل عليه الكتاب على وجازته .	١٣٥
طلبت بلقيس من أشراف قومها إبداء الرأي في كتاب سليمان .	١٣٦
تحذيرها قومها من حرب سليمان .	١٣٧
لم يقبل سليمان عليه السلام هدية بلقيس .	١٣٨
مجيء سليمان بعرش بلقيس .	١٤٠
من الذى عنده علم من الكتاب ؟	١٤١
ما فعائته بلقيس حين دخولها الصرح .	١٤٣
ما أعده سليمان لنزول بلقيس .	١٤٤
قصص ثمود مع صالح عليه السلام .	١٤٥
توعدوا صالحا عليه السلام بعد أن توعدهم .	١٤٨
ما قاله لوط لقومه ناعجا لهم .	١٤٩
تأنيب قوم لوط على قبيح فعلهم .	١٥٠